منارات
من الأزمنة الجميلة



أحمد أصفهاني

منارات
من الأزمنة الجميلة

الكتاب: منارات من الأزمنة الجميلة
الكاتب: أحمد أصفهاني

الطبعة الأولى: 2015م

ISBN: 978-9953-417-14-1

التوزيع: الفرات للنشر والتوزيع
ص. ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 961 1 750054
فاكس: 961 1 750053
التوزيع عبر الإنترنت: WWW.alfurat.com

الإهداء

إلى الشهيد الأمين حبيب كيروز

هل تذكر مقطع القصيدة الذي قرأته لك في آخر إتصال بيننا:

"إنه زمن الضحك الأصفر

إنه زمن الحب الأصفر

إنه زمن الموت الأصفر

فتلفت وأحذرْ

ثمة رجل يبسم في وجهك

في يده خنجرْ"؟

لا يخطر طيفك في البال إلا ويعصف بي الندم الموجع:

كيف أسلمناك لخفافيش الليل؟

كيف، وأنت من أنت، لم نحمِك في شغاف القلب ورمش العين؟

"من الفاجعة أن تبقى بطولات الكثيرين من النساء والرجال مخفية".

سعيد تقي الدين

المقدمة

في مسرحية "المنبوذ"، يضع الأديب السوري القومي الاجتماعي سعيد تقي الدين على لسان شخصية "رفيق" العبارة التالية: "نعم كنز... لقيت كنزاً. لقيت نفسي. كنت قطرة من مياه لا تروي، تتبخر، ولا شأن لها، عندما كنت وحدي. وقفزت إلى النهر، فلم أعد ذرة من مياه. أنا بعض هذا النهر. أنا النهر. النهر الغائر الهائج الواضح الهدف، الجارف ما يعترضه، المعلن بهديره ودويه عن وجوده وثورته وعطائه، وعن البحر الذي يقصد إليه...".

نعم، نحن بعضٌ من صيرورة هذا النهر. يرى الناس مياهه الدافقة ويتعامون عن السواقي والينابيع وقطرات المياه التي ترفده يوماً بعد آخر، ليصبح في خاتمة المطاف ذلك البحر المترامي على مدى النظر. وحتى لو تمكن متسللون متنوعو الألوان والأشكال من تلويث قسم من ضفاف ذلك النهر بمفاسدهم، فإن جريان المياه المتدفقة يلفظ الجثث المتحللة فلا يبقى إلا نضارة العطاء مع كل رافد جديد.

كان الانتماء الحزبي، في زمن جميل مضى، عنوان تفتح شخصية الفرد. تقوده عقيدة يتخذها شعاراً له ولعائلته ولبيته، وتؤطره مناقب هي أساس كل نظام كُتِبَ له البقاء. ثم حلّ في مجتمعنا زمن آخر مختلف، زمن الشطارة والفهلوة والفذلكة واللعب بالكشاتبين وتغطية السماوات بالقبوات، فباتت الصفة الحزبية مذمة تصيب الجميع، حتى أولئك الذين حافظوا على نقاوة

الانتماء وحرارة الإيمان.

لم يعدْ الناس العاديون يرون إلى السواقي والينابيع وقطرات المياه، ولا إلى النهر في "وجوده وثورته وعطائه"... بل يشيرون بأصابع الإدانة إلى الفاسدين المفسدين الذين طغت ارتكاباتهم على تضحيات ألوف من الجنود المجهولين، بل عشرات الألوف من أمثال "رفيق" بطل مسرحية "المنبوذ"!

المرويات التي أسردها في الصفحات التالية ليست سيرة ذاتية، ولا سيرة رفقاء مميزين مرّوا في صفوف الحزب السوري القومي الاجتماعي. إنها أحداث عايشتها عن كثب، كان أبطالها رفقاء بعضهم قضى وبعضهم الآخر ما يزال فاعلاً في حركة النهضة القومية. تختلف قصصهم وظروفهم، لكن يجمعهم إيمان لا يتزعزع بأن العمل الحزبي هو - في الأساس - إندماج في النهضة، وإبداع في الفكر، وإقدام في المواجهة... وكل ما دون ذلك باطل الأباطيل.

يُشرّفني أنني عرفت هؤلاء الرفقاء وعملت معهم في الأوقات الحلوة والمرّة. قسم من هذه القصص لا يعرفه سواي والشخص المعني به مباشرة، بينما القسم الآخر متداول بين عدد محدود من الرفقاء وعلى نطاق ضيق للغاية. ومن حقهم جميعاً، خصوصاً الذين غادرونا منهم، أن يطلع الصف الحزبي الحالي، والتيار الواسع من الجيل الجديد داخل الحزب وخارجه، على نماذج مميزة من الممارسات الحزبية القويمة... فلا تبقى "البطولة المعكوسة" المستشرية الآن هي مقياس الحكم على العمل الحزبي بالمطلق!

كان أول ما نتعلمه في وحداتنا الحزبية، بعد أداء قسم الانتماء، هو أسلوب المخاطبة في الحديث وفي الكتابة. مناداة الأعضاء تكون بـ "حضرة الرفيق المحترم" أو "حضرة المسؤول المحترم"، والأمناء بـ "حضرة الأمين جزيل الاحترام". والرسائل المرفوعة إلى المركز تكون "إلى مقام عمدة الداخلية الموقرة" أو "مقام الرئاسة الموقرة"... إلخ.

عبارات الاحترام والتقدير هذه تعكس تقاليدنا النظامية وقيمنا المناقبية، وتنمي فينا مواصفات الإنسان الجديد، وتؤسس لممارسات متمايزة تجعل

القومي الاجتماعي قدوة في الحزب كما في المجتمع. والرفقاء والرفيقات الذين أروي قصصاً عنهم كانوا قدوة بقدر ما كانوا بشراً يعملون ويخطئون... وينجحون أيضاً. أردت إبراز صورهم بوصفها الوجه الحقيقي للانتماء القومي وللعمل الحزبي المنزه عن الفردية والغرضية والمنفعة الشخصية والارتهان للإرادات الخارجية. وللذين يعتقدون أنني أردت من سير بعض هؤلاء الرفقاء إظهار النقيض الانحطاطي المنتشر حالياً، أقولها عالية وبكل وضوح: نعم! هذا ما أردته بالفعل... فالضدُ يُظهر سوءه الضدُ!!

أحمد أصفهاني

"العم شفيق"

توفي الرفيق شفيق طعّان مطلع العام 1999. مات فقيراً، معدماً، وحيداً، منعزلاً. لم يخرج في جنازته سوى عدد محدود من الأقرباء. كان قد أمضى السنوات الأخيرة من عمره منزوياً في غرفة صغيرة بضاحية بيروت الجنوبية، شاركته فيها زوجته الوفية أم وجيهة. أشياء كثيرة قيلت عن سبب ابتعاده عن الحزب، أو سبب إبعاد الحزب له!! لكن الأكيد أن شيئاً غير طبيعي حدث له وللحزب في وقت كنت قد غادرت بيروت إلى لندن للعمل، فما كان بمقدوري الوقوف على الأسباب الحقيقية لتلك القطيعة المؤلمة.

أعتقد أن الرفيق شفيق ما كان ليبتعد عن الحزب لاعتبارات أو لإشكالات فكرية أو سياسية، وهو الذي شارك في الثورة الانقلابية 1961 - 1962 وحُكم عليه بالسجن المؤبد، وظل في الاعتقال إلى حين الإفراج عن جميع السجناء القوميين الاجتماعيين (باستثناء العسكريين منهم)، وكان من أبرز محرري مجلة "النافذة" الخطية الصادرة في السجن آنذاك. وبعد خروجه إلى الحرية، تحمل مسؤوليات عدة في منفذية الضاحية الشرقية أولاً، ثم في منفذية بيروت التي التحق بها في أعقاب التهجير من منطقة النبعة بسبب الحرب الأهلية اللبنانية سنة 1975. وتفسيري الوحيد لتلك القطيعة هو أن خللاً ما أو خطأ ما وقع في الممارسة الحزبية ما أدى إلى الافتراق بينه وبين مؤسسات الحزب.

ولست هنا في صدد التحقق من ظروف ما حدث، ذلك أن الأمر يتطلب

محاكمة مرحلة الحرب الأهلية اللبنانية وتداعياتها الكارثية ليس على الحزب السوري القومي الاجتماعي وحده بل على مجمل العمل الحزبي في الكيانين اللبناني والشامي. إن عوامل الفساد والإفساد السياسية والأمنية والمالية شوهت صورة الإنسان الحزبي المناقبي، ولم ينجُ منها إلا القلة القليلة من الذين مارسوا البطولة المؤمنة المؤيدة بصحة العقيدة، والمتوجة بالمناقب القومية الاجتماعية السامية. وما أرويه هنا يعود إلى سنوات الزمن الجميل، سنوات الالتزام الرسولي بالمبادئ والمثل العليا وقيم الحق والخير والجمال.

***

عرفنا الرفيق شفيق طعّان باسم "العم شفيق" منذ أن تزوج من خالتي أم وجيهة. وبحكم علاقة القربى هذه كان يزورنا دائماً، مع خالتي أو من دونها، لتفقد أحوال والدتي التي كان قد أصابها الفالج النصفي فباتت طريحة الفراش تحتاج إلى رعاية على مدار الساعة تقدمها لها أختي الكبرى صالحة، وتساعدها قريبات لنا منهن خالتي أم وجيهة. ولسنوات عدة، ارتبطت زيارات "العم شفيق" بطعم شراب الكاكاو الساخن اللذيذ. فقد كان له أقرباء مهاجرون إلى أفريقيا يزودونه بين الحين والآخر ببودرة الكاكاو التي كان لنا منها النصيب الوافر.

ذكرياتي عن سنوات ما قبل الثورة الانقلابية ضعيفة للغاية في ما يتعلق بـ "العم شفيق". صورته ترتبط فقط بطعم شراب الكاكاو الساخن، وقطع نقدية معدنية يدسها خلسة في أيدينا الصغيرة... ونقاشات سياسية لا تنتهي في كل مرة يلتقي "رجال الحي" في الزقاق المؤدي إلى بيتنا بمنطقة برج حمود – النبعة.

فجأة اختفى "العم شفيق"، وما عدنا نتمتع بشراب الكاكاو. أسئلة كثيرة ظلت من دون أجوبة لأشهر عدة، إلى أن عرفنا أخيراً أنه معتقل مع القوميين الاجتماعيين الذين شاركوا في الثورة الانقلابية. ونتيجة لذلك تقلصت زيارات خالتي أم وجيهة إلى بيتنا، خصوصاً بعد وفاة والدتي في آذار سنة 1962، أي بعد حوالي الشهرين على فشل الانقلاب. لكن ما أن استقرت الأمور في

محاكمات القوميين المعتقلين، وصدرت الأحكام بحقهم، حتى عادت خالتي إلى عادتها في الاهتمام بنا... بالإضافة إلى عملها في تنظيف المكاتب والبيوت كي تتمكن من إعالة ابنتها الوحيدة وجيهة ودعم صمود زوجها "العم شفيق" في المعتقل.

سنوات السجن الأولى كانت صعبة للغاية بالنسبة إلى جميع أفراد العائلة، خصوصاً عندما نُقل المعتقلون إلى سجن القبة في طرابلس. وكانت خالتي، كما نساء وأقرباء كل الرفقاء السجناء، تقصد عاصمة الشمال اللبناني كل يوم أحد لزيارة زوجها وتزويده بما تسمح به إدارة السجن. وكنا نتسقط أخبار "العم شفيق" وغيره من الرفقاء، أصدقاء العائلة، من خلال تلك الزيارات القصيرة.

لم أفكر مرّة بزيارة "العم شفيق"، ولم تقترح خالتي أن أقوم بمثل هذه الزيارة. لعلها كانت تخاف علينا من أعين مخبري "المكتب الثاني" الذين مارسوا اضطهاداً فظيعاً بحق القوميين الاجتماعيين وأقربائهم على مدى سنوات. كنتُ في أعقاب هزيمة حزيران سنة 1967 قد بدأت أعي وأدرك أهمية العمل السياسي من أجل إزالة آثار تلك الكارثة القومية الفظيعة، ولذلك أقبلت على قراءة الفكر الماركسي اللينيني الذي استهواني كثيراً في مرحلة كانت غالبية حركات التحرر الوطني في العالم ملتزمة ذلك الفكر بكل تفرعاته الأيديولوجية. طبعاً لم أكن أجهل وجود الفكر القومي الاجتماعي، وبين معتنقيه عدد من أقربائي وأصدقاء العائلة. ومع ذلك كنت أعتبر نفسي أقرب إلى الماركسية مني إلى أية عقيدة أخرى.

ولذلك عندما اقترحت عليّ خالتي أن أرافقها في زيارتها الأسبوعية لرؤية "العم شفيق" في سجن القلعة - بيروت لم أتردد، بل كنت شديد الحماسة لهذه التجربة التي كانت الأولى لي إلى عالم السجون والسجناء السياسيين.

توجهنا ذات صباح من شهر آب سنة 1968 بالبوسطة إلى ساحة الشهداء، ومنها إلى سجن القلعة حاملين معنا بعض الأغراض والمأكولات. كانت الاجراءات الأمنية دقيقة جداً لكن من دون تشدد، وسبب ذلك أن البلاد كانت تعيش أجواء مشروع قانون تتم مناقشته في المجلس النيابي للعفو عن

السجناء القوميين الاجتماعيين.

لعل أجواء السجن، واختلاط الحراس بالزوار بالأهل بالسجناء، ومشاعر الاسترخاء المخيمة على الجميع، أثرت في قدرتي على استيعاب كل ما يجري فاكتفيت بالعناق والسلام والرد على الأسئلة الكثيرة التي طرحها عليّ "العم شفيق" حول جميع أفراد العائلة، وحول دراستي وخططي للمستقبل وما شابه. ثم تنحيت جانباً أراقب ما يجري، تاركاً لخالتي فرصة اللقاء الهادئ بزوجها الأسير.

يوم الأحد التالي قامت خالتي بزيارتها المعتادة إلى سجن القلعة. بعد الظهر قصدتُ بيتها المجاور لبيتنا في النبعة، للإطمئنان عليها والسؤال عن "العم شفيق". فوجئت بها تسلمني مغلفاً مغلقاً قالت إنه يتضمن رسالة خاصة من "العم شفيق". شعرت بالارتباك الشديد. كانت تلك أول مرة أتلقى فيها رسالة من شخص يكبرني سناً، وله مثل هذه التجربة السياسية والنضالية الغنية. لم أفض الغلاف أمام خالتي التي، في الأساس، لا تعرف القراءة والكتابة، بل سارعتُ إلى البيت حيث استطعت الانفراد مع الرسالة التي كان حدسي يؤكد لي أنها ستكون خاصة جداً!!

... وصدقت توقعاتي وحدسي!

رسالة من ثلاث صفحات بخط أنيق منمق، زاده دقة وجمالاً لون الحبر الأخضر. ليس في الرسالة كلها أية كلمة مشطوبة، ما يعني أن "العم شفيق" كتبها بعد إمعان نظر، وربما وضع مسوّدات لها قبل أن يسجل صيغتها الأخيرة على ورق ذي نوعية ناعمة، أي الصنف الذي يلجأ إليه السجناء لإخفاء رسائلهم عن أعين الحراس وتهريبها خارج الأسوار. في رأس الصفحة الأولى عبارة "من معتقل الأحرار - سجن القلعة - بيروت. في 20 آب 1968". ثم تأتي المخاطبة بـ "عزيزي أحمد" لرفع الكلفة بيننا، ولخلق نوع من المساواة الفكرية بعيداً عن الفوارق الكبيرة في العمر والثقافة والتجربة.

قرأت الرسالة مرات عدة، وتوقفت ملياً عند فقرات معينة منها. وكنت أعود إليها يوماً بعد آخر محاولاً استيعاب المضامين غير المباشرة التي أراد

"العم شفيق" إيصالها إليّ من غياهب السجن:

"وأخيراً... وبعد أعوام زرتني. ورغم أنني لا أستطيع تحديد دوافعك لهذه الزيارة فقد كان فرحي برؤيتك قاسياً، وكثيراً ما يكون في قساوة الفرح عذوبة لا يستسيغها سوى الذين عاشوا آلام العيش ومفاجآت الحياة وسبحوا في غمرات الإيمان الكبير بجمالها وحقها وخيرها.

"لحظة رؤيتي لك يا أحمد، انهارت الصورة الطفولية التي كانت تحتل خيالي وذكرياتي عنك ولك. وتجسّم فعل السنوات السبع الطوال العجاف التي كان إيماني قد اختصرها من عمري لما هو أقل من دورة يوم وليلة. هذا الإيمان العجيب النابع من رسالة حياتية شاملة عظيمة جعلتنا نقف فوق رحى الزمن الدائرة فلا نحس دورانها وتكرار تدافع لياليها ونهاراتها، أقمارها وشموسها... حتى جئت أنت البارحة تنصب أمامي شبابك المتفتح للحياة، فأحسست عندها فقط بأن الأيام تمر ورحى الزمن تدور. وأدركت عظمة إيمان يمحو تحرك الساعات الطويلة في مسيرة العمر فيما هو يعطي لتطويره ودفعه مراحل سريعة ثابتة من أجل كرامة أجيال كجيلك، وملايين الأزاهير والبراعم في حديقة أمتنا الكبيرة أن يغمرها دفء شمس المعرفة والحرية والكمال الاجتماعي الصحيح الذي بدونه يبقى الإنسان مسخاً مشوهاً وقزماً مجمداً. من أجلكم أنتم وخير الإنسانية كلها في المدى الطويل اخترنا نحن أن ندفع من آلامنا وحرماننا ضريبة التطور والبعث، لنخلص الأمة كلها من قيود تجمدها، وعار يُسربلها، وجفاف فكر يُذلها. من أجل هذا الهدف أنكرنا ذواتنا، وتناسينا حقنا الشخصي في الوجود والعيش... وليس هذا فحسب، بل سرنا، ونسير حاملين صلباننا على ظهورنا بلا أمل أو رجاء فردي، نواجه النكران بالبسمة، ونتقبل الجحود حتى من الأهل والأعزاء والأصدقاء، بالشكر لأننا مذ أدينا قسم العمل لنصر الأمة وخلاصها، عرفنا أن آلاماً لم يسبق لها مثيل في التاريخ تنتظر كل ذي نفس كبيرة منا...

"العلم والمعرفة والشهادات، إذا لم تكن وسيلة للمعرفة التي تجعل حاملها إنساناً، وإنساناً اجتماعياً يتحسس آلام أمته، ومشاكل شعبه، والأخطار المحيطة بوطنه ومصيره، فيعمل في ضوء هذا التحسس، وما تعلمه وما

تخصص به، لمسح تلك الآلام، وحل تلك المشاكل، ودفع تلك الأخطار معتمداً الأخلاق في تصرفاته والمناقب في اتجاهاته مدفوعاً بالصفاء القومي الرسالي... فإنه يبقى غير حامل من جوهر الإنسان إلا الطيف، ومن شكله سوى المظهر، وإنه ليكون أشد خطراً على أمته ووطنه من الأمي الجاهل، ومن العدو المتربص. وما أحقر أن يكون هدف الحياة العيش، والجبن وسيلة للسلامة.

"تألمت كثيراً عندما أخبرتني أن والدك وعمومتك يقترحون، أو يخططون، لإرسالك إلى إيران. والذي آلمني أكثر أن يشترك عمومتك بمثل هذا الاقتراح الذي يدل على تخلفٍ فظيع في فهمهم الرسالة التي أقسموا لها يمين الولاء...

"وإذا كان الدافع هو من رواسب شعور كامن في أعماقهم بأن إيران هي وطنهم فليعلموا أنهم فيها غرباء وأنهم يخطئون كثيراً... أما أنت، وقد تخطيتهم علماً وادراكاً، فأريدك أن تثق أن وطنك هنا، وأهلك هنا، ومصيرك هنا... ولهذه البلاد والأمة يجب أن يكون ولاؤك وانتماؤك (...) فمن خيرها تكونت، وعليها ولدت، وفي مجتمعها وبيئتها تعلمت وتثقفت، فأصبحت ما أنت الآن، وما قد تكونه في المستقبل".

الفقرة الأخيرة من الرسالة ظلت تلح عليّ طيلة الأيام التالية لقراءتها. شيء ما هزّ قناعاتي "الراسخة" كلها: ما سر هذا الإيمان العميق لدى هؤلاء الناس؟ أية قوة تفولذ وجودهم رغم كل ظروف القهر والاضطهاد؟ وأين أنا من هذه العقيدة التي تجعل الأمة أساس وجودنا كأفراد وجماعات؟

لم أتأخر طويلاً في اكتشاف الأجوبة التي كانت في متناول يدي... وإن تعاميت عنها كثيراً. وعندما استقبلت "العم شفيق" أمام باب السجن، بعد صدور قرار العفو عن القوميين الاجتماعيين في آذار سنة 1969، كانت الأجوبة الوافية قد وضعتني بخطى واثقة على درب أبناء الحياة!

"خرجية" للاشتراك الحزبي!

عايش أبي الحزب السوري القومي الاجتماعي عن قرب. شقيقاه الأصغر سناً، حسن وحسين، انتميا إلى الحزب في أواسط الخمسينات. أصدقاؤه ومعارفه الخلص كانوا أعضاء ناشطين أيضاً، أذكر منهم ديب كرديه وعبد الرحيم عاصي ومهدي عاصي ورفعت سرور ورفعت مبارك وغيرهم. لكنه لم ينتم إلى الحزب قط، علماً بأن شقيقه حسن استشهد في منطقة النبعة خلال الحرب الأهلية اللبنانية سنة 1976.

وظلّ طيلة حياته يكنّ احتراماً كبيراً للحزب، مع تقدير خاص لشخصية الزعيم بالذات. عندما كنا نسأله: "متى تزوجت الوالدة يا أبو أحمد؟" كان يفكر قليلاً ثم يقول: "متى عاد أنطون سعاده من الأرجنتين؟ بعد ذلك بشهرين تقريباً"! ونسأله: "متى وُلدت صالحة (أختي الكبرى)؟" فيجيب بلا تردد: "السنة التي أعدموا فيها أنطون سعاده". أما جوابه على سؤال حول تاريخ وفاة أم أحمد، فيأتي مع غصة مؤلمة: "بعد فشل الانقلاب سنة 1962".

دُوهم بيتنا في النبعة بعد فشل الانقلاب، وصُودرت منه كميات من الكتب والوثائق الحزبية كان عمي حسن أودعها عندنا قبيل سفره إلى الكويت أواخر سنة 1959. لم يُعتقل أبي، لكن عمي حسين سقط بأيدي رجال الأمن بعد أشهر. كما اعتقل معظم أصدقاء العائلة بمن فيهم الرفيق شفيق طعّان زوج

خالتي أم وجيهة. ومع ذلك حافظ أبي على صلاته بمن تبقى من القوميين خارج السجن، مع الحذر الشديد من عيون مخبري "المكتب الثاني" الذين عاثوا اضطهاداً في العباد والبلاد آنذاك.

خلا بيتنا من أية كتب حزبية في ظل أجواء القمع التي سادت البلاد بعد فشل الانقلاب. وكان الوالد يحرص على تزويدي بمجلات الأطفال المختلفة، ولعله أراد بذلك أن يعوض حرمانه من التعليم وهو الذي لم يحصّل سوى مبادىء القراءة والكتابة في مدرسة القرية، وكانت تقتصر آنذاك على ما تيسر من السور القرآنية. وبقينا على هذه الحال "الثقافية" إلى أن عاد عمي حسن إلى بيروت في العام 1963 حاملاً معه عشرات الكتب القيّمة، فتفتح أمامي عالم جديد قوامه مجلدات الأدب والتراث والتاريخ التي كانت تصدر في الكويت. وفي مرحلة لاحقة أصبحت جريدة "النهار"، خصوصاً ملاحقها الأسبوعية، مكوناً أساسياً لمعارفي الثقافية والسياسية.

لم أرثْ عن أبي أو عمي حسن أي اهتمام بالحزب السوري القومي الاجتماعي. كان معظم أساتذة مدرسة الجامع التي التحقتُ بها في النبعة من اليساريين أو القوميين العرب. كما غذت تحقيقات "النهار" عن حركات التحرر العالمية مخيلتنا المراهقة قبيل هزيمة حزيران المدوية سنة 1967. وصرتُ اعتبر نفسي أقرب إلى الفكر الماركسي مني إلى أي فكر آخر. لكن زيارتي غير المخطط لها إلى السجن للسلام على "العم شفيق" زوج خالتي أم وجيهة شكلت منعطفاً حاسماً في حياتي.

تغيّرت الأمور بعد انتقالي إلى مدرسة نايف أمهز في سن الفيل حيث تبين لي أن غالبية المعلمين والمعلمات أعضاء في الحزب أو مناصرون له. أول كتاب حزبي "تسلل" إلى يديّ كان "تبلغوا وبلغوا" للأديب القومي سعيد تقي الدين. ثم حصلتُ على نسخة من كتاب "المحاضرات العشر"، وبعده كتاب "مراحل المسألة الفلسطينية". وقد حرصت على عدم المغامرة بكشف قراءاتي هذه أمام أبي أو عمي، خشية اشكالات عائلية كنت بغنى عنها طالما أنني ما زلت في المدرسة الثانوية واعتمد على أبي في مصاريف الجيب اليومية.

ترافقت قراءاتي "السرية" هذه مع حلقات إذاعية سرية أيضاً كانت تُعقد مرة كل شهر في منزل صديقي وزميلي في المدرسة جودت أمهز. وساعدنا على الكتمان أن البيت ملاصق للمدرسة، فكنا ننتهز فرصة الغداء لحضور الحلقة التي يشاركنا فيها عدد من الأساتذة أذكر منهم معلمتين من عائلة أبي رعد من بلدة تنورين. ومن الصدف الغريبة أنني تعرفت إلى شقيقهما الرفيق بطرس بعد ذلك بسنوات عندما التحقت بمديرية كلية الآداب التابعة للجامعة اللبنانية.

في أواخر العام 1968 أصبحتُ مستعداً لإداء قسم الانتماء. فالنشاط الحزبي حظي بدفعة قوية آنذاك بموازاة المساعي الحكومية والنيابية لإصدار قانون بالعفو العام عمّن تبقى من القوميين الاجتماعيين في السجن. كانت جلسة القسم في منزل أحد الرفقاء من عائلة حاموش في حي الغزال بمنطقة سن الفيل، في مطلع آذار 1969 على ما أذكر، والأكيد أنها كانت قبل موعد الإفراج عن باقي السجناء القوميين باستثناء العسكريين الثلاثة فؤاد عوض وشوقي خيرالله وعلي الحاج حسن.

طبعاً لم يطلع أحدٌ من أهلي على هذه الخطوة، وساعدني في الحفاظ على سرية انتمائي إلى الحزب أنني كنت قد انتقلت إلى ثانوية رمل الظريف الحكومية حيث تابعت النشاط الحزبي شبه السري. أما في منفذية الضاحية الشرقية، فقد كانت مديرية سن الفيل "بعيدة" نسبياً عن أنظار الأهل والأقارب في النبعة. يُضاف إلى ذلك أن طبيعة العمل الحزبي ظلت محاطة بنوع من الحذر والكتمان حتى بعد إقرار قانون العفو العام، وعودة الحزب إلى نشاطه المعتاد بين الناس.

الشيء الوحيد الذي تغيّر في بيتنا كان بداية ظهور الكتب الحزبية بصورة علنية. لم يُثِرْ ذلك حفيظة أبي أو عمي نظراً إلى أن الكتب القومية ترافقت مع الكتب الماركسية، وإلى جانبها دواوين الشعر المتنوعة، ناهيك عن المجلات ذات التوجهات المختلفة. ولعل أبي اعتقد أن حب الاطلاع هو دافعي في الحصول على تلك الكتب، أو لعله لم يعد يجد ما يمنع من اقتناء الكتب القومية طالما أن الحظر الأمني على نشاط الحزب قد رُفع تماماً بعد قانون

العفو. أما من جهتي، فبقيتُ حريصاً على الكتمان قدر استطاعتي بانتظار اللحظة الحاسمة... وما كانت هذه اللحظة لتتأخر طويلاً!

يطلُ بيتنا في النبعة على شارع شعبي عريض. أمامه "حسينية" بناها السكان المحليون المنحدرون من بلدة هونين الجنوبية التي اغتصبها اليهود سنة 1948، وفي الطوابق الأرضية عدد من محلات البقالة والخضار. جرت عادة رجال الحي على أن يجلسوا أمام أحد المحلات يومياً، خصوصاً في فترة ما بعد الظهر، يشربون الشاي ويتحدثون في الأحوال العامة. وكنتُ أشاركهم بعض هذه الجلسات بين حين وآخر. وبما أن الشارع كان ممراً أساسياً يربط قلب النبعة بالمناطق المجاورة، فكثيراً ما كانت الحلقة تتسع لضيوف يصادف مرورهم من هناك.

كان من بين القوميين الاجتماعيين الذين أفرج عنهم بموجب قانون العفو عدد من سكان برج حمود - النبعة، أذكر منهم: شفيق طعان، توفيق الصفدي، محمد العبد بيضون، كامل الأشقر، أحمد فروخ، أنطون قرهبت، علي حمزة، وغيرهم. وسبق لي لقاء معظمهم في مناسبات حزبية عديدة سواء في إطار المنفذية أو في بعض المناسبات المركزية في سد البوشرية حيث استأجرتْ قيادة الحزب مركزاً مؤقتاً في أواسط العام 1969. وليس من الضروري الإشارة إلى أن فارق السن بيني وبين هؤلاء الرفقاء كان كبيراً جداً!

ويمكننا تصور علامات الدهشة التي كانت ترتسم على ملامح أبي في كل مرة يشاهد أحد هؤلاء الرفقاء ينضم إلى حلقتنا، ويتحدث معي حديث معرفة وصحبة. ولا شك في أن الوالد كان يتساءل في سره: "من أين هذه الصحبة بين ابني وبين أشخاص لم يكد يمضي على خروجهم من السجن سوى أشهر معدودة؟" لكن أبي الهادىء الصموت لم يُشرْ إلى هذا الوضع لا من قريب ولا من بعيد. وأظنه كان ينتظر الدليل القاطع لتأكيد ظنونه التي تزايدت بعد أن صرت أغيب عن البيت في بعض الأيام قاصداً أحراج بلدة ديك المحدي حيث أقام الحزب معسكرات تدريبية.

ثم جاءت ساعة المواجهة. كنت جالساً على الشرفة المطلة على الشارع أطالع إحدى الصحف، عندما دخل أبي حاملاً كرسياً خشبياً صغيراً. جلس

قبالتي وقال دون أية مقدمات: "هل دخلت في الحزب القومي السوري؟" ومع أني كنت أتوقع انكشاف الأمر يوماً ما، إلا أن السؤال المباشر باغتني. لم يعد هناك مفر من الاعتراف، وليكن ما يكون. كنت قد وضعت في ذهني سيناريوات عدة لمثل هذه اللحظة، وبت مستعداً لتقبل كل تداعياتها وتحمل مسؤولية خياراتي. أجبته بهدوء: "نعم، وكان ذلك قبل شهر من العفو".

خيّم الصمت علينا لدقائق. ظلت عينا أبي مصوبتين نحو الشارع، في حين كنتُ أختلس النظر إليه محاولاً اختراق ملامح وجهه الجامدة. التفت إليّ قائلاً: "أنت شاب الآن وتستطيع اتخاذ القرار الذي تراه مناسباً. لكنني أريد أن أوضح لك مسألة مهمة. الحزب القومي السوري هو حزب الأخلاق والمناقب والرجولة، وهو حزب البطولة أيضاً. ولأنه كذلك، هو يريد الأعضاء الناجحين المواظبين ولا يقبل الكسالى الفاشلين. وإذا كنت تعتقد بأن العضوية السطحية تعفيك من مسؤولية النجاح في الحزب وفي حياتك الخاصة، فأنت مخطيء تماماً. فبقدر ما تنجح في دروسك وعلومك بقدر ما ستنجح في الحزب، والعكس صحيح أيضاً. إذا كنت ناجحاً على المستوى الشخصي ستكون ناجحاً على المستوى الحزبي".

لم يُضفْ أبي كلمة أخرى، ولم ينتظر مني أي تعليق. قام حاملاً كرسيه الصغير متوجهاً إلى الشارع حيث أخذت حلقة الجيران تتكون أمام أحد المحلات. في آخر الشهر، رفع أبي "خرجيتي" الأسبوعية من نصف ليرة إلى ليرة كاملة... قسم منها لدفع اشتراكاتي الشهرية الحزبية!

بائع أوراق اليانصيب

الوحدة الحزبية الأولى التي التحقت بها علناً، بعد أداء قسم الانتماء إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي في منطقة حي الغزال - سن الفيل حيث بقيت لأشهر قليلة، كانت مديرية برج حمود الثانية التابعة لمنفذية الضاحية الشرقية. كنت يومها على أعتاب الانتهاء من الدراسة الثانوية، وقد بدأت التفكير في مستقبل الدراسة الجامعية. وكان ذلك "إنجازاً مهماً" في عائلتنا أولاً، وفي محيطنا الاجتماعي في النبعة ثانياً، لأن الاستمرار في التعليم العالي كان الاستثناء للقاعدة المعتادة والتي هي الدخول في سوق العمل أو الالتحاق بوظيفة حكومية مباشرة بعد إكمال مرحلة التعليم الثانوي.

مدير المديرية، الرفيق أبو سامي محمد أسعد، من منطقة البقاع الغربي. يعمل بائع أوراق يانصيب في ساحة الشهداء في وسط العاصمة اللبنانية، متجولاً في شوارعها المزدحمة بالمارة والسيارات بين ساحة البرج والمعرض واللعازارية وساحة الدباس. تثقف على نفسه داخل الحزب، خصوصاً في فترات الاضطهاد والملاحقات والاعتقال في الشام ولبنان، وهي الفترات التي خلفت في عموده الفقري إصابة دائمة أثرت على حركته وطريقة مشيه. أما باقي أعضاء المديرية فكانوا من نازحي الأرياف، جنوباً وبقاعاً، سعياً وراء لقمة العيش الكريم في مدينة لم تعطهم سوى أحزمة الفقر في النبعة وبرج حمود والدكوانة وسد البوشرية وحرش ثابت والمسلخ وتل الزعتر...

وهكذا، وفي مثل هذا المحيط الاجتماعي، وأهلي كانوا منه على أية حال، كان من الطبيعي أن تتسلل مشاعر الخيلاء والزهو إلى نفس الفتى المراهق المنتسب حديثاً إلى المديرية، ليشعر بأنه "أعلى كعبية" من باقي الرفقاء والمواطنين سواء في مديرية برج حمود الثانية أو في الوحدات الأخرى المجاورة التابعة للمنفذية.

إنهمكت في العمل الحزبي المكثف فور التحاقي بالمديرية، وسرعان ما ظهرت "مواهبي" الإذاعية والثقافية في محيطنا الحزبي والشعبي، فتم تعييني مذيعاً للمديرية بناء على اقتراح المدير الرفيق أبو سامي الذي أصبحت مقرباً جداً منه ومن عائلته القومية الاجتماعية، خصوصاً أنني رحت أساعد أولاده الأشبال في دروسهم الخصوصية مرات عدة في الأسبوع. ولعل هذا التقدم السريع في المسؤوليات الحزبية هو الذي ساهم في تكثيف مشاعر الخيلاء الغامضة التي كنت أحسها عندما ألحظ إعجاب الرفقاء والمواطنين بالحلقات الإذاعية التي كنت أغطيها، أو في السهرات الاجتماعية التي كنا نعقدها دورياً في منازل الرفقاء على مستوى المنفذية.

ثم حدثت واقعة غيّرت هذه المشاعر والأحاسيس جذرياً. عقدت المديرية اجتماعها الدوري المعتاد ذات يوم في منزل الرفيق أبو سامي بحضور كامل أعضائها تقريباً. وبعد تلاوة الصادرات والواردات وبحث الموضوعات المدرجة على جدول الأعمال، طرح مدير المديرية مسألة تتعلق بتوزيع بيانات حزبية أصدرتها رئاسة الحزب آنذاك، وتتناول - على ما أذكر - الاحتكاكات التي كانت تندلع من حين إلى آخر بين الفدائيين الفلسطينيين من جهة والجيش اللبناني مدعوماً بعناصر من حزب الكتائب وحزب الوطنيين الأحرار من جهة ثانية.

إستعرض الرفيق أبو سامي الظروف السياسية والأمنية في البلاد وموقف الحزب منها، ثم قال إنه سيكلف مجموعة من الرفقاء بتوزيع البيانات في ليلة سيتم تحديدها لاحقاً، على أن يتولى عدد آخر من القوميين تأمين الحماية لمجموعة التوزيع بما يتوافر معهم من أسلحة فردية (وهي كانت محدودة للغاية وبدائية في تلك الفترة)، خصوصاً عندما تصل المهمة إلى مناطق

الدكوانة وسن الفيل وجسر الباشا حيث للكتائب والأحرار وجود ملحوظ، ومن المحتمل أن يحتكوا بالرفقاء بهدف افتعال أحداث أمنية تترافق مع التوترات الحاصلة بين الجيش والفدائيين. وبعد ذلك، أعلن أبو سامي أسماء الرفقاء المكلفين بهاتين المهمتين... وكنت من عناصر الفئة الأولى التي ستوزع البيانات.

حتى هذه اللحظة لا أستطيع إعطاء تفسير منطقي لردة فعلي الانفعالية عندما ذكر مدير المديرية إسمي في عداد الرفقاء الآخرين المكلفين بتلك المهمة. ولا أذكر تماماً الكلمات التي ألقيتها بحدة في ذلك الاجتماع، وإن كانت عبارة عن رفض مطلق للتنفيذ بحجة أعذار واهية حاولت أن أعطيها أهمية خاصة. لكن الحقيقة الفعلية والخفية هي أنني كنت أتصرف بأنانية المتعالي المتعجرف: فهل يُعقل أن ينزل "الشاب الجامعي المثقف" إلى مصاف "العمال الأميين" ويدور في الأزقة ليلاً لتوزيع البيانات، بينما يجب أن يقتصر دوره فقط على الصالونات حيث تُعقد الحلقات الإذاعية والسهرات الاجتماعية؟

خيّم الصمت على جميع الرفقاء وهم ينصتون بدهشة إلى ألفاظي الهائجة، وعلامات الاستغراب مرسومة على وجوههم الواجمة. أما أبو سامي فكان يحدّق بي بتمعن شديد وظلال إبتسامة حانية تلوح على شفتيه. لم ينطقْ بأية كلمة، ولم تبدرْ عنه أية حركة. سمح لي بإكمال كلامي من دون مقاطعة. وعندما انتهيتُ، إلتفتَ إلى الرفقاء سائلاً: "هل توجد مسائل أخرى؟" ولما لم يُجبْ أحدٌ، تابع يقول: "والآن سنختتم الاجتماع باسم سورية وسعادة، وعلى الرفقاء الذين اخترناهم لتوزيع البيانات والحماية التجمع في مكتب المنفذية في منطقة النبعة حسب الموعد المقرر".

إنفض الاجتماع، وأخذ الرفقاء يغادرون بيت الرفيق أبو سامي تباعاً. وعندما هممت بالرحيل، أمسكني من ذراعي وطلب مني البقاء لأنه يريد أن يبحث معي في تطور دروس أولاده. كنت أعرف أن هذا مجرد عذر للإنفراد بي لاحقاً ومناقشتي في الموقف المستهجن الذي اتخذته خلال الاجتماع، ولذلك هيأت نفسي لسماع محاضرة في النقد والتقريع والمعاتبة. وكنت قد

أدركت خطأي بعد هدوء العاصفة، وشعرت بضرورة الاعتذار من الرفقاء جميعاً. غير أن الكبرياء وعنفوان الشباب - وربما الغرور الأعمى أيضاً - منعاني من الإقدام على ذلك. وأعترف بأنني كنت مرتاحاً للإنفراد بالرفيق أبو سامي، لأن ذلك يمنحني فرصة الاعتذار منه... وفي الوقت نفسه حفظ ماء الوجه بعدم الاعتذار العلني أمام الرفقاء وفي اجتماع رسمي للمديرية!!

طلب الرفيق أبو سامي من زوجته إعداد إبريق من الشاي، وجلسنا وجهاً لوجه صامتين لدقائق معدودات ريثما تم ذلك. وكنت خلالها أتجنب النظر مباشرة إلى عينيه متوقعاً أن يبدأ "موعظته" في أية لحظة. لم يطل إنتظاري كثيراً، فقد أنقذني صوته الهادىء بينما هو يحرك الملعقة لتذويب السكر في كباية الشاي. لم يرفع عينيه مباشرة نحوي، بل ظل يتلاعب بالملعقة وهو يقول: " يا رفيق أحمد، أنت في أول الشباب، مثقف، متعلم، وأمامك مستقبل جامعي أتوقع أن يكون ناجحاً. كما وأنك حققت في الحزب إطلالة جيدة بحيث بات الرفقاء يحترمونك ويقدرونك. ولا شك عندي في أنك ستتقدم في مسؤولياتك الحزبية بخطوات سريعة واثقة بقدر ما تكتسب من خبرات وتجارب".

وأضاف بصوت حيادي تعززه قوة المسؤولية، وهو يركز نظره في عينيّ: "لا أريد الآن التحدث عما جرى في الاجتماع، فهذا أمر عارض قد يحدث لأي واحد منا في مقتبل حياته الحزبية. غير أنني أرغب في إسداء نصيحة أرجو أن تتقبلها من رفيق أمضى معظم سنوات حياته في العمل القومي النضالي، وهي أنه إذا لم تعوّد نفسك وتدربها على تقبل الأوامر وتنفيذها حتى لو لم تكن مقتنعاً بها مئة في المئة، فإنك لن تستطيع لاحقاً، عندما تصبح أنت مسؤولاً (وهذا ما أتوقعه لك حتماً) أن تقنع الرفقاء بتقبل الأوامر التي تعطيها لهم وبالتالي تضمن تنفيذها بحذافيرها... وفي مثل هذه الحالة تكون قد حكمت على نفسك بالفشل منذ البداية. القاعدة الذهبية التي أضعها بين يديك، يا رفيق أحمد، واضحة وصريحة: كي تُطاع يجب أن تعرف كيف تُطيع".

كنت قد إنتهيت من شرب كباية الشاي الثالثة عندما توقف الرفيق أبو

سامي عن كلامه الذي شكل درسي الحزبي الإداري الأول على المستوى العملي. بعد ذلك لم تبق هناك فائدة من أية أحاديث أخرى في هذه الجلسة، فغادرت عائداً إلى بيتنا الذي لا يبعد كثيراً عن بيت الرفيق أبو سامي. وخلال الأيام الثلاثة التالية لم ألتقِ حضرة مدير المديرية، غير أننا في اليوم الرابع كنا معاً في مكتب المنفذية حيث تسلمنا رزمة البيانات الحزبية وانطلقنا مع رفيقين آخرين في مهمتنا الحزبية إبتداء من ساحة الدكوانة باتجاه مخيم تل الزعتر.

"إننا نعمل لأجيال لم تولد بعد"

كنا ننتظر قدوم إجازة فصل الصيف بفارغ الصبر. نشاطاتنا الحزبية المعتادة في إطار منفذية الطلبة الثانويين ومنفذية الطلبة الجامعيين تتوقف - عملياً - مع بدء موسم الإمتحانات المدرسية أو الرسمية. غير أننا كنا نتطلع دائماً إلى برامجنا الصيفية التي تتضمن، إجمالاً، مخيمات تدريبية مكثفة أو فعاليات إنمائية واجتماعية تجعلنا على تماس مباشر وحيوي مع قواعدنا الشعبية، خصوصاً في المناطق المتعاطفة تاريخياً مع الحزب السوري القومي الاجتماعي.

في صيف العام 1971، وكان قد مضى على انتمائي الحزبي أكثر من سنتين، أبلغني المنفذ العام لمنفذية الطلبة الثانويين الرفيق توفيق ميلان أن موسمنا لهذا العام سيكون العمل الشعبي الإنمائي في الأرياف. وبما أنني، في الأصل، من بلدة الهرمل البقاعية، فقد تقرر أن أنضم إلى مجموعة الرفقاء الطلبة الثانويين الذاهبين إلى بلدة النبي عثمان للمشاركة مع رفقائنا هناك في عدد من المشاريع الملحة في البلدة التي تفتخر بأن "الديوك عندما تصيح فيها صباحاً... تهتف: تحيا سوريا".

سُررتُ بهذا الترتيب. أولاً، لأني أفضل العمل الإنمائي الاجتماعي في الأوساط الشعبية على الثرثرات والمماحكات السياسية في أزقة المدن ومقاهيها. وثانياً، لأني أعرف النبي عثمان وأهلها معرفة وثيقة تعود إلى زمن

اعتاد أهلي فيه على قضاء فصل الصيف هناك، خصوصاً بعد أن تزوجت عمتي فاطمة من المواطن علي مهدي نزهة واستقرت معه في البلدة وأنجبت عائلة قومية اجتماعية. وكان من الطبيعي أن أنزل في بيت عمتي - كما هي عادتي الصيفية - عندما أزور النبي عثمان وأسرح في بساتينها المثمرة التي ترويها قناة غزيرة المياه تمتد من نبع اللبوة المجاور وتواصل جريانها إلى بلدة العين وما بعدها شمالاً.

توجهنا إلى النبي عثمان بصورة متفرقة، كل واحد منا بطريقته الخاصة. واستقبلنا الرفقاء هناك بكل المودة والمحبة والإلفة المعروفة عنهم. وتوزعنا في بيوت القوميين الاجتماعيين المنتشرة في الضيعة الجبلية قرب البيادر، وكذلك في السهل حيث لم تكن تكاثرت بعد منازل الإسمنت والباطون المسلح، بل كل ما هنالك مصاطب صيفية تظللها الأشجار وتحيط بها الخضرة والمياه من كل صوب. ثم إلتقينا جميعاً في بيت المنفذ العام الأمين ديب كردية للتعارف وتوزيع المهمات المطلوب تنفيذها خلال الأيام العشرة التي سنقضيها في النبي عثمان.

أخبرنا المسؤولون الحزبيون المحليون أن الحاجة ملحة لتنظيف قناة المياه الأساسية الآتية من نبع اللبوة، فمع أنها مبنية من الباطون إلا أن عوامل الزمن والإهمال أدت إلى تراكم الحجارة والأتربة في بعض أجزائها. غير أن أسوأ ما في الأمر أن النباتات البرية وشجيرات العليق الشوكي باتت تغطي معظم أقسامها بحيث أصبحت تشكل خطراً على الصحة العامة... هذا إذا عرفنا أنها المصدر الوحيد لمياه الشرب في منطقة السهل كلها، ولذلك بات من الضروري إزالة الركام كي تصبح حافتا القناة مكشوفتين ونظيفتين تماماً.

تقرر أن يتولى العدد الأكبر من الرفقاء تنظيف القناة وتعزيلها، في حين يتعهد الباقون إجراء إصلاحات وصيانة على الطريق الزراعي الممتد بمحاذاة القناة والذي تعرض في بعض أجزائه لانهيارات أرضية جعلت من الصعب مرور السيارات والشاحنات الصغيرة عليه إلا بمشقة بالغة. وهذه أيضاً مسألة حيوية للأهالي لأن تصريف الإنتاج الزراعي للبلدة، من تفاح وخوخ ومشمش وكرز ودراق وخضار موسمية متنوعة، يجد منفذه الوحيد عبر هذا الطريق...

الوحيد أيضاً!

المهم أنني كنت مع مجموعة ورشة القناة، أو الساقية كما يعرفها أبناء النبي عثمان. تسلحنا بالمعاول والمجارف والشِوَك وانطلقنا من آخر سهول النبي عثمان بالقرب من بلدة العين نزولاً باتجاه نبع اللبوة، على أمل أن ننجز عملنا عند الظهيرة فنلتقي هناك رفقاء ورشة الطريق لتناول طعام الغداء في المرجة الواسعة المطلة على النبع، وحيث يكون رفقاء ورفيقات أعدوا الطعام من "حواضر البيت" كما يقولون.

المجموعة التي عملتُ معها كانت مؤلفة من الرفيق حسين علي إبراهيم نزهة (أستشهد في معركة الدفاع عن مركز الحزب في منطقة جل الديب) والرفيق عاشق العاشق الذي أصبح صهري لاحقاً والرفيق محمد علي مهدي نزهة، ومعنا المنفذ العام الرفيق توفيق ميلان. رفيقان يتوليان قطع النباتات البرية وتشحيل شجيرات العليق عن طرفي الساقية، ورفيق ينتظر على مسافة أبعد عند أسفل مجرى المياه ومعه شوكة تعترض الماء وتلتقط النباتات المقصوصة الطافية مع السيل، ورفيق آخر يجمع هذه النباتات ويضعها على جانب الطريق، ثم ينظف قعر الساقية من الحصى والأتربة بعد أن نكون قد تقدمنا مسافة إلى الأمام.

كنا في خضم انشغالنا عندما وصل الأمين ديب كردية لتفقد أحوال الرفقاء، ووقف في الوسط بين الرفيقين اللذين كانا يقطعان النباتات وبيني أنا الذي أحمل الشوكة وأعترض مجرى المياه. وكان يحدث أن تتراكم هذه النباتات بحيث تعرقل السيل فيحدث احتقان وتفيض المياه حتى تتجاوز حافتي القناة، إلى أن أرفع الأغصان العالقة فتعود الساقية إلى مسراها الطبيعي السريع. وبينما الأمين ديب في حديث مع الرفيق توفيق، إذ بقدمه تزل من جراء إنزلاق بعض الحصى... ليقع في الساقية على ظهره! وكانت المياه في تلك اللحظة طافحة، والأمين ديب بقامته الممتلئة ساهم في زيادة الطفح حتى طافت المياه على الجانبين... فصرخت بأعلى صوتي، وقد كنت على مبعدة أمتار منه: "يا رفقاء، راح المنفذ العام في الساقية"!

وما كاد الرفيقان العاملان في الأمام يصلان إليه إلا وكان الأمين ديب قد

هبّ من وقعته، وصعد إلى الحافة اليسرى من الطريق العام وهو مبلل من رأسه حتى أخمص قدميه، والتفت نحوي ضاحكاً وهو يتوعدني بيده التي تقطر ماءً: "راح المنفذ العام في الساقية؟ ولو يا رفيق أحمد، المنفذ العام الذي لم تغلبه الملاحقات والسجون والمعارك لن يذهب ضحية ساقية بالكاد تصل مياهها إلى ركبتيه". وشاركناه جميعاً في الضحك، وأنا أشعر بحرج داخلي مكبوت... وانتهى ذلك اليوم بحفلة غداء احتضنت كل الرفقاء قرب نبع اللبوة لا أروع ولا أجمل.

سهرة المساء في ذلك اليوم كانت في بيت الأمين ديب قرب البيادر. صمتُ الليل الريفي يُخيم على البيوت الطينية المتناثرة قرب الجامع بعد أن أوى معظم الناس إلى منازلهم الصيفية المؤقتة في السهل. إجتمعنا حوالي الأربعين رفيقاً ومواطناً من الطلبة الثانويين والجامعيين وأبناء النبي عثمان والعين. أحاديث اجتماعية وحزبية متنوعة محورها الأمين ديب الذي سرد لنا بعض وقائع وخبايا المحاولة الإنقلابية والاعتقالات والتعذيب والسجن في الستينات. وبين حين وآخر كانت طرفة "راح المنفذ في الساقية" تطفو على سطح الكلام فيضحك الحضور، ويلتفت الأمين ديب نحوي معاتباً بمودة وإلفة.

ولا بد هنا من فتح مزدوجين اعتراضيين لإيضاح مسألة تتعلق بكنيتنا العائلية حتى نستوعب لاحقاً ما سأرويه عن خاتمة تلك السهرة. نحن من الهرمل أصلاً، ونُعرف هناك بإسم "بيت العجمي" نظراً إلى أن جدي لأبي هاجر في زمن مضى من إيران إلى لبنان فأطلقوا عليه لقب "العجمي". غير أن كنيتنا الرسمية في السجلات الحكومية كانت "أصفهاني"، وأنا كنت "أحمد أصفهاني" في سجلات المدرسة وإضبارات الحزب... وقد عرفني الأمين ديب بهذا الإسم.

نعود إلى السهرة التي امتدت حتى ما بعد منتصف الليل، وقد حان وقت أن نتوزع على بيوت الرفقاء للنوم. كان الأمين ديب يشرف على هذه الترتيبات ليتأكد من أن كل رفيق من خارج الضيعة ذهب مع رفيق أو مواطن من النبي عثمان لقضاء الليل عنده. وعندما حان دوري، سألني الأمين ديب عن المكان

الذي سأبيت فيه ليلتي، فأجبته ببساطة: "أنا نازل عند بيت عمتي في السهل". استغرب إجابتي، وتابع متسائلاً: "عمتك في السهل؟ من هي عمتك؟" أجبته بلهجة الأمر المفروغ منه: "عمتي فاطمة، زوجة علي مهدي نزهة". إنتفض الأمين ديب في مكانه، وسألني بصوت مرتبك ومتحمس: "فاطمة العجمية زوجة أبو مهدي هي عمتك؟" قلت بهدوء: "نعم"!

فجأة خيّم صمت ثقيل على الغرفة التي كانت قبل لحظات قليلة تضج بعشرات الأحاديث وتخفق بحركة الرفقاء وهم يستعدون للمغادرة. للحظة شعر الجميع وكأن سكون العتمة الحالكة في الخارج غشي على محيا الأمين ديب الذي اغرورقت عيناه بالدمع. وبعد ثوان حسبتها دهراً، سألني بصوت متهدج: "إذن أنت أحمد، إبن محمد الحاج رضا العجمي؟" كانت أحاسيس الاستغراب قد امتلكت كياني كله وعقدت أربطة لساني، فلم أستطع النطق بل اكتفيت بهز رأسي موافقاً... عندها انهمرت دموع الأمين ديب التي جاهد كثيراً لضبطها، لكن من دون جدوى.

أذهلتنا المفاجأة، فعدنا جميعاً لنجلس على الأرائك والحُصر المفروشة على الأرض الطينية الباردة، وعيوننا شاخصة إلى الأمين ديب ننتظر أن يهدأ نحيبه الصامت بينما صدره يرتفع وينخفض بقوة تعكس عمق المشاعر المختلجة في قلبه وعقله. دقائق مرت من دون أن يجرؤ أحدنا على خرق ذلك السكون الثقيل. وبين الحين والآخر كان الأمين ديب يختلس النظر إليّ ثم يحول عينيه إلى السقف المحمول على جذوع شجر الحور وهو عاجز عن وقف سيل الدموع المنهمرة.

أخيراً استجمع أنفاسه، وتوجه بالحديث إليّ قائلاً: "هل تعرف يا رفيق أحمد أن بين عائلتنا وعائلتكم علاقة تاريخية وثيقة؟" أجبته: "أعرف ذلك، وكثيراً ما حدثني أبي عن الأمين ديب المسجون بسبب المحاولة الإنقلابية".

نقل الأمين ديب حديثه من المستوى الشخصي إلى المستوى العام مخاطباً الحضور جميعاً: "في أواخر الخمسينات، كنت أزور بيت أبو أحمد في منطقة برج حمود النبعة لتفقد أحوال العائلة، خصوصاً بعدما أصيبت المرحومة زينب، أم الرفيق أحمد، بمرض الفالج الذي أقعدها في الفراش

إلى حين وفاتها. وكنت ألاعب الأطفال صالحة وعليا وأحمد (الصغير علي كان في أشهره الأولى) بينما أبو أحمد يجهز إبريق الشاي الممتاز وأم أحمد ممددة في فراشها تشارك في الحديث، لكنها لا تقوى على الحركة. أحمد كان الطفل المدلل، وكنت أدعوه إليّ فيأتي نحوي ويجلس في حضني وأطلب منه أن يقول "تحيا سوريا"، لكنه كان يرفض بعناد. وكنت أكرر عليه الطلب بإلحاح من دون طائل، إلى أن أخرج من جيب سروالي قطعة معدنية من فئة الربع ليرة وأقول له: "إذا قلت تحيا سوريا سأعطيك هذه الربع". فكان يقف باستعداد ويؤدي التحية هاتفاً تحيا سوريا... ثم يخطف القطعة المعدنية من يدي ويهرب إلى أقرب دكان".

وتابع الأمين ديب كلامه بعد توقف قصير ليمسح ما تبقى من آثار الدموع على وجنتيه: "... وانقطعت الإتصالات بين عائلتينا بعد فشل الإنقلاب. نحن دخلنا السجن، وتوفيت أم أحمد، وانتقل بيت العجمي جميعاً من برج حمود إلى النبعة لبدء حياة جديدة من دون حنان الأم... وسرقَ الأسرُ سبع سنوات كاملة من أعمارنا. وفجأة أشاهد أمامي الطفل "الأزعر" أحمد وقد أصبح شاباً ورفيقاً "أزعر"! وبلحظة أدركت أن العمر يهرب منا بسرعة، وأن عالماً كاملاً فقدناه ونحن في غياهب السجن. صدمتني هذه المفاجأة، فبكيت. غير أني أدرك الآن بصورة جلية ما قصده حضرة الزعيم عندما أكد لنا أننا نعمل لأجيال لم تولد بعد".

ثم التفت الأمين ديب نحوي قائلاً ببسمة هادئة تحمل عمق المحبة التي يكنها لنا ولجميع رفقائه: "كنتَ ترفض أن تقول "تحيا سوريا" إذا لم أدفع لك ربع ليرة، أما اليوم فها إنك تهتف "تحيا سوريا" وأنت تدفع جهدك وعرقك ودمك من أجل النهضة".

وما أن أكمل عبارته هذه حتى هبّ على الفور واقفاً باستعداد عسكري هاتفاً: "تحيا سوريا رفيق أحمد، تحيا سوريا حضرات الرفقاء... وتصبحون على خير". نهضنا جميعاً وكأننا نلبي إيعازاً حزبياً غير منظور، هاتفين: "تحيا سوريا حضرة الأمين... تحيا سوريا".

"الـمعطف الألـماني"

إستطاعت منظمة "الزوبعة" إقامة مجموعة من القواعد العسكرية المتقدمة في منطقة العرقوب بجنوب لبنان في وقت ما من مطلع العام 1975. قبل ذلك، كان القوميون الاجتماعيون يساهمون في العمل الفدائي بالتعاون مع مختلف المنظمات الفلسطينية في أنحاء متفرقة من الكيان اللبناني حيث للحزب السوري القومي الاجتماعي وجود شعبي راسخ. أما قرار إنشاء قواعد خاصة بـ "الزوبعة" فقد جاء بهدف تحقيق نوع من الاستقلالية في التخطيط والتنفيذ، لكن في إطار التنسيق العام مع باقي القوى الوطنية الأخرى الناشطة ضد العدو الصهيوني.

ظلت "الزوبعة" مستقلة إلى حد ما عن المؤسسات الحزبية التي كانت تعاني من إنقسام حاد في تلك الفترة. وحرص المسؤولون في المنظمة على أن تسمو نشاطاتها فوق فوضى التشرذم الداخلي، وأن تبقى بعيدة عن التجاذبات السياسية الفئوية في ظل صراع محتدم بين أفرقاء الساحة الوطنية أخذ يؤثر سلباً على الساحة اللبنانية الضائعة بين منظمة التحرير الفلسطينية وعلى رأسها حركة "فتح" من جهة وبين إستراتيجية القيادة الشامية التي لم تكن تنظر بعين الإرتياح إلى توجهات الحركة الفلسطينية بقيادة أبو عمار.

الدعم الأولي الذي أمناه لـ "الزوبعة" جاء من اللحم الحي، أي من

جيوب القوميين وأصدقائهم. الرفقاء العاملون والمواطنون المقربون كانوا هم مصدر التمويل الأساسي لدعم قواعدنا على خطوط المواجهة المباشرة. وكنا نعتمد كثيراً على الرفقاء المغتربين سواء من ناحية التبرعات المالية أو التبرعات العينية والمعدات الطبية والأدوية ومستلزمات الإقامة وغيرها. ولذلك كانت أشهر الصيف، عندما يعود قسم كبير من المغتربين إلى الوطن لقضاء العطلة السنوية، فرصة سانحة وموعداً مهماً نترقبهما على أحر من الجمر لأنهما يعنيان الفرج القريب بوصول المساعدات المرجوة.

الرفيق ناجي المقيم في إحدى الدول الأوروبية واحد من هؤلاء المغتربين. لم يكن يفوّت عطلة أو مناسبة إلا ويزور بيروت محملاً بكل ما يكون قد جمعه القوميون الاجتماعيون في عدد من مناطق الاغتراب. وبعد السلام على الأهل والأقارب، كان يتوجه إلى العرقوب لقضاء بضعة أيام في قواعد "الزوبعة" بين الرفقاء المرابطين على تخوم فلسطين المحتلة. وقد عرفنا يومها أن الرفقاء المقيمين في أوروبا كانوا ينظمون أوقات زياراتهم إلى الوطن بحيث يستمر وصول المساعدات بوتيرة منتظمة.

وبالإضافة إلى أهمية ما كانت "الزوبعة" تحصل عليه من دعم يقدمه الرفقاء المغتربون، حرص الرفيق حبيب كيروز المسؤول الإعلامي في المنظمة على الاستفادة من زيارات الرفقاء سواء من الوطن أو من عبر الحدود من أجل عقد لقاءات فكرية وثقافية وسياسية مصغرة تهدف إلى تعزيز البعد العقائدي السياسي المناقبي للمقاتلين القوميين الاجتماعيين في مشروع سميناه "عقدنة العسكر". ذلك أن المقاتل المعقدن هو الضمانة البعيدة المدى للإنتصار على العدو الصهيوني، وفي الوقت نفسه الحصول على التفاف الأوساط الشعبية المحلية التي تشكل الحاضن الضروري لاستمرار عمل المقاومة. ومن النقاط التي أثارها الرفيق حبيب يومذاك اعتباره أن اللقاءات مع الرفقاء الزوار، خصوصاً من مناطق الاغتراب، ستكون مفيدة من ناحيتين: الأولى، أنها تؤطر عمل الوحدات الحزبية في عبر الحدود كي تكون رديفاً فاعلاً للنشاط في الوطن. والثانية، أن مقاتلي "الزوبعة" سيشعرون في هذه اللقاءات بأنهم طليعة متقدمة لجسم حزبي منتشر على مستوى العالم.

في إحدى المرات، حان دور الرفيق حسن المغترب في أوروبا لزيارة بيروت. وبعد أن أمضى أياماً عدة مع الأقارب والأصدقاء، حزم حقيبته الصغيرة متوجهاً بصحبة الرفيق حبيب إلى العرقوب لقضاء حوالي الأسبوع في قواعدنا العسكرية. كان نشاطي الحزبي في تلك المرحلة موزعاً بين "الزوبعة" ومنفذية الضاحية الشرقية وبعض المهمات المركزية، ولذلك غالباً ما تواجدتُ في العرقوب مع الرفيق حبيب أو من دونه، خصوصاً عندما يأتينا زوار من خارج لبنان سواء كانوا من الرفقاء القوميين أو من قوى صديقة وحليفة كنا قد نسجنا معها علاقات نضالية على مستوى المنطقة.

عندما وصل الرفيقان حبيب وحسن إلى العرقوب، كنتُ قد سبقتهما إلى هناك قبل يومين. نحن نعرف الرفيق حسن مذ كان تابعاً لمنفذية الطلبة الثانويين، ولذلك حفل لقائي به بأحاديث الذكريات وتداول أخبار الرفقاء والأصدقاء المهاجرين ومناقشة تطورات الأحداث القومية والعالمية. وما أن حلّ المساء، وتم توزيع مهمات الحراسة حول المخيم المنعزل، حتى انعقدت حلقة السهر المعتادة في مثل هذه المناسبات. الأشجار الباسقة المتلاصقة تحجب ضوء القمر الفضي في تلك الليلة الصيفية الهادئة، وأشعة اللهب المتراقصة تنعكس على وجوه الرفقاء المقاتلين المستعدين لأية مواجهة في كل لحظة... والرفيق حبيب يتولى دفة الحديث عن العقيدة والنظام والمعركة القومية المصيرية مع العدو في كل مكان.

طالت السهرة أكثر مما كنا نتوقع، وعند منتصف الليل تسللت إلينا لسعات برد حملتها نسائم جبل الشيخ المطل على المنطقة كلها. ويبدو أن أحد الرفقاء الذي كان قد عاد لتوه من نوبة الحراسة لاحظ أن الرفيق حسن بدأ يتأثر بتدني درجات الحرارة، وهو الذي لم يكن يرتدي ما يقيه البرد، فقام من فوره بنزع معطفه السميك وقدمه إلى الرفيق الزائر طالباً منه تحديداً أن يغطي رأسه بالقبعة الموصولة بالمعطف لأنها مبطنة من الداخل بالفرو الطبيعي.

إنتهت السهرة عند الساعة الثانية بعد منصف الليل تقريباً، وآوينا جميعاً إلى مهاجع النوم المخصصة لكل واحد منا، فكان الرفيق حسن من ضيوف

خيمتي القريبة من خيمة التموين. وبغض النظر عن طول السهرة، فقد كان علينا جميعاً الاستيقاظ باكراً للمشاركة في بعض التمرينات الروتينية قبل أن نلتقي لتناول الفطور. وعندما نهضت من فراشي، فوجئت بالرفيق حسن مستيقظاً قبلي وقد جلس على حافة الفرشة الإسفنجية بكامل ملابسه، متدثراً بالمعطف السميك وكأنه لا يريد التخلي عنه قط!

أدهشني منظره ذاك، وشعرت أن هناك شيئاً غير طبيعي في سلوكه. كان مستغرقاً في أفكار أخذته إلى أماكن بعيدة كل البعد عن المخيم وعن العرقوب. ألقيت عليه التحية القومية وتحية الصباح، فأجابني بصوت وكأنه آتٍ من أغوار عاطفة لم أتبين طبيعتها للوهلة الأولى. لعله أصيب بنوبة برد بعد السهرة الطويلة أمس. أو ربما يعاني من التعب فقط. أو قد يكون مصاباً بتلبك معوي من جراء أكل المخيمات المختلف عما عهده في أوروبا أو حتى في بيروت.

سألته عمّا به، وهل يعاني من مشكلة صحية؟

أجابني بكلمة واحدة: "هذا المعطف"!

"المعطف"؟ قلتها له باستغراب شديد وأنا لا أفهم بالضبط ما يقصد بذلك.

أجابني بعد صمت قصير وهو يتحسس أطراف المعطف وكأنه يصافح يد صديق عائد من غياب طويل: "هذا المعطف، الذي قدمه لي الرفيق الحارس أمس، هو في الأصل معطفي أنا. لقد اشتريته من أحد المحلات المعروفة في المدينة التي أقيم فيها قبل سنتين، ولذلك عرفته من إسم الشركة الألمانية المصنعة عندما تأملته هذا الصباح في ضوء النهار. السنة الماضية زارنا الرفيق ناجي حيث أمضى معنا أياماً عدة، وقد أصيب عندنا بنوبة برد وسعال فأهديته المعطف لدرء البرد القارص. ويبدو أنه عندما جاء إلى الوطن قبل أشهر، وتوجه في زيارة إلى العرقوب، قدّم هذا المعطف إلى الرفقاء المقاتلين... وأمس قدّم لي هذا الرفيق، من حيث لا يدري، المعطف الذي دار 360 درجة على الرفقاء من أوروبا إلى بيروت إلى العرقوب... إلى أوروبا مجدداً"!

... وللذين يسألون عن مصير "المعطف الألماني"، أقول إنه أمضى سنوات عدة يؤمن الدفء للرفقاء المرابطين عند سفوح جبل الشيخ وعلى مرمى النظر من هضاب الجليل.



من مصياف إلى لندن

اللقاء الأول مع الأمين حسن عز الدين، الذي توفي في 22 أيار سنة 2005، تم في معسكر للتدريب صيف العام 1970. في تلك الفترة، كان الحزب السوري القومي الاجتماعي قد أقام علاقات تعاون وتنسيق مع حركة "فتح" مهدت الطريق لتنظيم دورات تدريبية لعدد من الرفقاء في المخيمات الفلسطينية في لبنان إبتداء من سنة 1969. غير أن تلك الدورات كانت محدودة، واقتصرت على أيام قليلة وفي أحيان كثيرة على بعض الليالي فقط، من دون توافر الظروف التي تسمح بمناورات عملية بسبب الأوضاع اللبنانية الداخلية آنذاك.

لذلك كانت دورة سنة 1970 مختلفة ومميزة، ودُعي للمشاركة فيها نخبة من الرفقاء المتحمسين من الطلبة الثانويين والجامعيين، وكذلك من شباب المنفذيات المنتشرة في الكيان اللبناني بعد أن كان الحزب قد استعاد مواقعه الشعبية في أعقاب الخروج من الأسر بموجب العفو العام الذي شمل المشاركين في المحاولة الإنقلابية ليلة رأس السنة 1961.

إلتقينا في معسكر تابع لحركة "فتح" يقع في الجبال القريبة من بلدة مصياف في الكيان الشامي، حوالي 135 قومياً اجتماعياً يُشرف على تدريبهم خبراء فلسطينيون. وحتى الآن لا نعرف ما إذا كانت قيادة "فتح" أخذت على عاتقها، من دون الرجوع إلى السلطات الشامية، تدريب القوميين الاجتماعيين

الذين كانوا حتى ذلك الوقت ممنوعين رسمياً من أي نشاط سياسي في الشام... أم كان هناك تفاهم ضمني على هذه الدورة طالما أننا لا نظهر حزبيتنا علناً ولا نحتك بالسكان المحليين في القرى والبلدات المجاورة.

توزعنا في الخيم المنصوبة بين أشجار التين حسب وحداتنا الحزبية، وكنت يومها تابعاً لمنفذية الضاحية الشرقية. واتخذنا جميعاً أسماء حركية زيادة في الحيطة والكتمان، وجرياً على العادة المتبعة في صفوف المنظمات الفدائية الفلسطينية. وهناك تعرفت إلى "أبو الهيثم" الرفيق حسن عز الدين من منفذية عكار. وعرفني هو بلقب "أبو الفرج" الذي حملته منذ ما قبل إنتمائي إلى الحزب... لأسباب وجيهة!! ونشأت بيننا علاقة مودة استمرت طيلة الدورة التي استغرقت حوالي ستة أسابيع.

عندما عدنا إلى لبنان بعد انتهاء الدورة التي كانت قاسية جداً، إنقطعت الاتصالات بيننا إلا في مناسبات حزبية مركزية متباعدة. لكن ما أن اندلعت الحرب الأهلية اللبنانية في نيسان سنة 1975، حتى تجددت الصلات في ظل توسع العمل العسكري داخل الحزب وانتشاره في معظم المناطق اللبنانية. ثم حكمت عليّ الظروف الحزبية بالتواجد خارج الوطن لفترة إنتهت أواخر سنة 1977.

إبتداء من سنة 1978، صارت لقاءاتي مع "أبو الهيثم" مقتصرة على الاجتماعات المركزية بعد أن تولى هو مسؤوليات حزبية في الشمال اللبناني في حين كنت أتنقل بين بيروت والجنوب، إضافة إلى تولي مسؤولية وكيل عميد الدفاع في المركز. وسارت الأمور على هذا المنوال إلى أن غادرت الوطن في تشرين الثاني سنة 1980 للعمل في إحدى المؤسسات الإعلامية العربية في العاصمة البريطانية.

أخبار "أبو الهيثم"، كما أخبار غيره من الرفقاء في الوطن، كنت أتابعها من خلال مطبوعات الحزب وعبر وسائل الإعلام اللبنانية. وراقبت باهتمام كيف أنه أصبح المندوب المركزي في الشمال، قبل أن يحتل مقعداً نيابياً سنة 1992 بموجب الصيغة الجديدة التي حكمت لبنان بعد التوصل إلى "إتفاق الطائف" الذي أنهى مرحلة صعبة من الحرب الأهلية. ولم يُعكر صفو

شعوري بالسعادة تجاه "أبو الهيثم" سوى بعض الشائعات والخبريات التي كانت تردنا من الوطن وتتحدث عن صفقات وخلافات ومماحكات بين عدد من المسؤولين المركزيين في تنافسهم على المناصب النيابية والحكومية، وفي مساعيهم إلى نسج علاقات خاصة مع الأجهزة الأمنية الشامية صاحبة الحل والربط على الساحة اللبنانية.

ومما لا شك فيه أن تعيين الأمين حسن عز الدين وزيراً للتعليم المهني والتقني، وهي وزارة مستحدثة آنذاك، جاء في سياق تلك المماحكات الحزبية الداخلية، عندما كان بعض المسؤولين الحزبيين "يناضل" من أجل كسب ود القيادات الأمنية الشامية كخطوة لا بد منها للوصول إلى المناصب الحكومية. ولذلك لم أكن مرتاحاً أبداً إلى هذه الأجواء التي شعرت بأنها ستدخلنا في نفق مظلم سيكون الخاسر الأكبر في نهايته الحزب السوري القومي الاجتماعي والتيار المناقبي الذي يمثله.

لم يكد يمضي شهران على تولي الأمين عز الدين منصبه الوزاري، حتى جاءنا بلاغ من المركز يحيطنا علماً بأنه مدعو لزيارة لندن بهدف عقد سلسلة من اللقاءات مع المسؤولين التربويين البريطانيين. وكان من الطبيعي أن تهتم مديرية المملكة المتحدة المركزية بترتيب بعض نشاطات الزيارة، علماً بأن جوانب منها تخضع لبرامج الجهة البريطانية المضيفة من ناحية، بينما تهتم السفارة اللبنانية من ناحية ثانية بالجوانب الأخرى كما هو متعارف عليه في العمل الديبلوماسي الخارجي.

قمنا بما يمليه علينا الواجب الحزبي تجاه الوزير والوفد المرافق له، ونظمت له المديرية حفلة استقبال واسعة في أحد الفنادق الكبرى في لندن. وشاركنا في حضور معظم اجتماعاته المفتوحة في مقر السفارة اللبنانية، ومع المؤسسات الإعلامية العربية على مختلف توجهاتها. وكذلك أمنّا له المرافقة الدائمة عندما كان يخرج من أسر البروتوكول الرسمي مع مضيفيه البريطانيين.

كانت جريدة "الحياة" التي أعمل فيها من أهم المؤسسات الإعلامية العربية المتواجدة في لندن، واعتادت على استقبال كل المسؤولين اللبنانيين والعرب الذين يقصدون بريطانيا سواء في مهمات رسمية أو في زيارات

خاصة. وهذا ما انطبق أيضاً على الوزير عز الدين الذي دعاه جهاد الخازن رئيس التحرير لزيارة الجريدة قبل ظهر أحد الأيام، طالباً من الزملاء الأساسيين الحضور إلى مكتبه لعقد لقاء وحوار مع الوزير حول تطورات الوضع اللبناني الذي كان ما يزال في ذلك الوقت حساساً للغاية ومفتوحاً على كل الاحتمالات.

يقع مكتبي الشخصي في "الحياة" بمواجهة مكتب رئيس التحرير تماماً، لكنه أصغر بكثير طبعاً. وقد حرصت في ذلك اليوم بالتحديد على إغلاق الباب حتى لا أرى الوزير وحاشيته وهم يدخلون مكتب جهاد الخازن، ليس تهرباً من لقاء الأمين عز الدين لكن لتجنب منتهزي الفرص الساعين إلى التمسح بأعتاب المسؤولين الحكوميين. وكانت الفكرة أن أنضم لاحقاً إلى الاجتماع الموسع. بعد دقائق أرسل جهاد سكرتيرته طالباً مني الانضمام إليهم، فاستمهلتها ريثما أنتهي من عمل مستعجل. غير أنه عاد وأرسلها مرة أخرى، لكن من حسن حظي أني كنت على الهاتف فأشرت إليها بيدي ما معناه أني سأنضم إليهم فور انتهاء المخابرة. ويبدو أنني أطلت الحديث، لأن مدير مديرية المملكة المتحدة آنذاك الرفيق محمد معتوق، الذي كان يعمل في "الحياة" ورافق الوزير في لقائه مع الخازن، أطل من باب مكتبي ليحثني على الإسراع!!

والواقع أني لم أكن راغباً في حضور هذا الحشد لمعرفتي الأكيدة بحجم النفاق الذي يخيم في العادة على مثل هذه اللقاءات. وكنت قد قمت بواجبي تجاه الأمين عز الدين في حفل الاستقبال وفي نشاطات السفارة اللبنانية، وإن من دون حماس زائد بسبب خلفيات تعيينه وزيراً والأجواء التي رافقت إنخراط الحزب في الحياة النيابية والحكومية. غير أنني في الوقت نفسه، ما أردت مقاطعة الوزير لاعتبارين: أولاً منصبه الحزبي، وثانياً علاقات المودة التي ربطتنا منذ سنة 1970 على رغم الإنقطاع الطويل منذ سنة 1980.

ويبدو أن جهاد الخازن والرفيق محمد معتوق فقدا الأمل من حضوري، أو أنهما انغمسا في حوار مع الوزير بحيث لم يعد أحد يسأل عن وجودي أو يرسل السكرتيرة لاستعجالي. وأذكر أن الجلسة استغرقت أكثر من ساعة

ونصف الساعة، وشارك فيها كبار المحررين في جريدة "الحياة" ومجلة "الوسط".

فجأة انفتح باب مكتبي الذي حرصت بشدة على إبقائه مغلقاً طيلة فترة الزيارة، ووقف الوزير عز الدين بقامته الطويلة عند المدخل وخلفه الحاشية والزملاء، وأطلق ضحكة مجلجلة وهو يقول بصوت جهوري: "إذا كان أحمد أصفهاني لا يقوم للقاء الوزير حسن عز الدين، فإن الرفيق أبو الهيثم حريص جداً على أن يأتي للقاء الرفيق أبو الفرج".

... وللحظات خُيّل لي أنني ألمح مشاعر مخيم مصياف خلف مستلزمات المنصب الوزاري!!



"بهذا الإيمان نحن ما نحن"

لست أذكر على وجه التحديد متى جاء الشقيقان أمين ورامز علي حسين للمرة الأولى إلى مكتب منفذية الضاحية الشرقية الكائن في أحد أزقة منطقة النبعة المكتظة بالبشر والدراجات والسيارات... وعربات بيع الخضار والفاكهة. وكذلك يفوتني الآن إسم الرفيق الذي إصطحبهما لمقابلة مسؤولي المنفذية في أواخر صيف العام 1974، لأنهما "يريدان أن ينضما إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي".

كل شيء كان عادياً بالنسبة إلى أمين ورامز، وقدومهما إلى مكتب المنفذية لم يكن مستغرباً أبداً. لكن أمين، وهو الأكبر سناً بينهما، كان ذا إطلالة جسدية مميزة وملفتة: قامة ممشوقة وجسم متناسق وعضلات مفتولة، طوله أكثر من 190 سنتم ولياقته البدنية فوق المعتاد نظراً إلى أنه - كما عرفت لاحقاً - يمارس رياضة رفع الأثقال وكمال الأجسام، وحقق إنجازات ملحوظة فيها.

كنت مداوماً في مكتب نظارة التدريب آنذاك بوصفي ناموس النظارة والقائم بأعمالها في ظل غياب الناظر الأصيل الرفيق إلياس خليفة (أبو الليل) الذي كان مسافراً خارج بيروت يومها. أما المنفذ العام الرفيق علي حمزة (أبو فهد) فمشغول بمتابعة الإتصالات الحزبية العامة، لذلك وقعت على عاتقي مهمة استقبال أمين ورامز للوقوف منهما على طبيعة رغبتهما بالإنتماء إلى الحزب.

إمتد اللقاء إلى أكثر من ساعة ونصف الساعة، وكان كافياً لأعرف ما يلزم عن خلفية هذين المواطنين. تبين لي أن أمين ورامز من بلدة حولا الجنوبية، ليس لديهما أي التزام حزبي، وإن كانا من عائلة معروفة بتأييدها التقليدي لرئيس مجلس النواب كامل الأسعد، أحد أبرز وجوه الإقطاع السياسي في الكيان اللبناني في مرحلة ما قبل الحرب الأهلية سنة 1975. القوة الأخرى في حولا تشكلت من الحزب الشيوعي اللبناني الذي تمتع بوجود تاريخي راسخ هناك بحيث أخذ يتحدى النفوذ الأسعدي المدعوم من قبل السلطات الرسمية والأجهزة الحكومية.

في مطلع العام 1974، وصلت الأمور في حولا إلى حد الصدامات المسلحة بين الشيوعيين تدعمهم بعض الجماعات الماركسية المحلية من جهة والأسعديين من جهة أخرى. ووقع جرحى من الطرفين في الهجمات الإنتقامية المتبادلة التي امتدت إلى مناطق يسكن فيها أبناء حولا النازحون إلى الضواحي مثل برج حمود والنبعة والشياح وغيرها. ومع أن أمين ورامز لم يكونا ناشطين في الجماعة الأسعدية، إلا أنهما دفعا ثمن انتسابهما إلى عائلة محسوبة على الأسعد، وفيها عناصر متحمسة للعمل ضد الشيوعيين.

وأدت توترات حولا إلى وقوع سلسلة حوادث في النبعة، كان أبرزها إقدام مجموعة من الشيوعيين على إلقاء قنبلة يدوية في غرفة كان ينام بداخلها عدد من أقرباء أمين ورامز بقصد قتل كل من يتواجد في البيت. غير أن الشباب نجوا من هذا الهجوم الذي أسفر، مع ذلك، عن مقتل طفل صغير وإصابة إثنين آخرين بجروح بليغة. ونظراً إلى أن الشيوعيين كانوا أقوياء في النبعة مقارنة بالأسعديين، فقد أدرك أمين ورامز أنهما بحاجة إلى دعم تنظيم سياسي يملك من النفوذ والقوة ما يؤهله لحماية عائلتهما بوجه الشيوعيين المستفرسين الذين كانوا قد كثفوا تحرشاتهم بالأسعديين من أهالي حولا في النبعة.

واعترف أمين ورامز بصراحة أمامي أنهما قصدا مكتب الحزب لهذا الغرض بعد أن بحثا الموضوع مع أحد الرفقاء وكان يقطن في المبنى الذي يسكنان فيه. وكشفا أيضاً أنهما لا يعرفان إلا بعض الأمور السطحية عن الفكر

السوري القومي وعن سياسة الحزب. ولاحظت أن أمين كان أكثر تحفظاً في حديثه من أخيه رامز المندفع والمتحمس بصورة مدهشة. غير أنهما، معاً، كانا صادقين في رغبتهما بالإنتماء إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي كان بالفعل القوة الأكبر والأفعل والأكثر تنظيماً في النبعة... على الأقل لتأمين الحماية من بطش الشيوعيين!!

لم أظهر حماسة فورية لتحقيق رغبتهما، علماً بأنني كنت مسروراً جداً بكسب هذين الشابين. والسبب أننا - كحزب سوري قومي اجتماعي - عانينا غياباً ملحوظاً عن بلدة حولا، بل أعتقد أن عدد الرفقاء منها كان يُعد على أصابع اليد الواحدة! وأبديت تحفظاً علنياً أمام أمين ورامز، أولاً لأنني أردت التأكد من صدق نيتهما، وثانياً حتى أطمئن إلى أنهما غير مدسوسين علينا، وثالثاً كي لا ينتابهما شعور بأننا بحاجة إليهما للعمل في أوساط أبناء حولا.

وبعد أن أصغيت إليهما مطولاً، رحت أشرح لهما طبيعة الحزب السوري القومي الاجتماعي، وكيف أننا لا نضم إلى صفوف النهضة سوى من تابع حلقات إذاعية وتفهم العقيدة وأبدى قدوة حسنة في السيرة والأخلاق والممارسة. وأكدت لهما أن الحلقات الإذاعية مفتوحة لكل المواطنين أمثالهما، وقد تستغرق أسابيع عدة قبل السماح لهما بتقديم طلب انتماء إلى الحزب. أما قبول هذا الطلب فأمر قد يستغرق فترة أخرى طويلة. غير أنني، في الوقت نفسه، أردت أن ألبي كذلك جانباً من حاجتهما الأساسية، فأكدت لهما أن الحزب سيكون مسؤولاً عن أمنهما وحمايتهما بوصفهما مواطنين مقربين يتابعان حلقات إذاعية رسمية، وهذا ما يكفي ليرد عنهما وعن عائلتهما اعتداءات الشيوعيين.

تركت العبارة الأخيرة ارتياحاً واضحاً في نفسيْ أمين ورامز، ظهرت تعابيره على وجهيهما. واتفقنا في ختام ذلك اللقاء على أن يلتحقا بحلقة إذاعية كانت تعقد يومياً في مكتب المنفذية، وكلفت الرفيق الذي حضر معهما بأن يتولى ترتيب الأمور ويرافقهما في اليوم التالي إلى حلقتهما الأولى، ويعرفهما إلى المسؤولين. وعندما وقف الجميع للمغادرة، أدى الرفيق التحية الحزبية الرسمية... ولم أتمالك نفسي عن الابتسام عندما حاول أمين ورامز

تقليده بطريقة تحمل الكثير من الإرباك والخجل.

صرتُ ألتقي أمين ورامز يومياً في مكتب المنفذية، وأبلغني الرفقاء المسؤولون عن الحلقات الإذاعية أنهما أظهرا اهتماماً مكثفاً وأخذا يتفهمان فكر الحزب وسياسته في إطار ثقافتهما العامة المحدودة. ويبدو أن علاقتهما العلنية بالحزب وجهّت رسالة إلى الشيوعيين من أبناء حولا فكفوا الأذية عنهما وعن عائلتهما، مما شجعهما أكثر على الانخراط في العمل الحزبي الجاد والفاعل. وما هي إلا أشهر قليلة حتى كانا في عداد المنتمين إلى الحزب، وأنجزا خلال الفترة ذاتها تدريبات عسكرية أولية تطورت لاحقاً بسبب توتر الأوضاع السياسية والأمنية التي أدت بعد أسابيع قليلة إلى اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية في نيسان 1975.

عندما تحولت حادثة البوسطة في منطقة عين الرمانة من كمين فردي إلى اشتباكات واسعة، كنت أتولى مسؤولية ناموس نظارة التدريب في الضاحية الشرقية، أي الشخص الثاني في التراتبية العسكرية بعد ناظر التدريب الرفيق إلياس خليفة الذي صادف وقتها أنه كان في زيارة قصيرة إلى بلدته في الكيان الشامي. ومع أن المنفذ العام الرفيق علي حمزة كان متواجداً بصورة شبه دائمة في المكتب، إلا أنه كان يؤمن بالإختصاص تاركاً للعسكريين مهمة إدارة الوضع الميداني... وهكذا كان. وقد حرصنا دائماً على وضعه في صورة الأوضاع العامة في نطاق الوحدات الحزبية والرجوع إلى هيئة المنفذية قبل اتخاذ أية قرارات أساسية في الجوانب العسكرية.

ومع أن الأمور الأمنية لم تتدهور بصورة خطيرة في الشهور الأولى من الحرب الأهلية، إلا أن منطقة النبعة شهدت اشتباكات حامية خصوصاً على جبهات سن الفيل والصالومي والدكوانة وكراج عزوز. وقد شارك أمين ورامز بفعالية في القسم الأكبر من تلك المواجهات، وأظهر أمين (الذي اتخذ لنفسه لقب "أبو واجب") تحديداً شجاعة ملحوظة جعلتنا نعتمد عليه في مهمات صعبة، فكان يحمل المدفع الرشاش الثقيل ومعه جنازير الذخيرة وينطلق به وكأنه سلاح فردي صغير، علماً بأن مثل هذا السلاح كان يحتاج تشغيله إلى ثلاثة أشخاص في الظروف الاعتيادية. وكان أمين، بقامته المديدة وعضلاته

النافرة والمدفع الرشاش وجنازير الذخيرة، يطل علينا بمنظر مهيب مثير للرهبة!

لم تقتصر مسؤوليات منفذية الضاحية الشرقية على حماية جبهات النبعة وسن الفيل وبرج حمود فقط، بل كان يُطلب منا تحريك زمر (الزمرة 6 مقاتلين) وجرائد (الجريدة 12 مقاتلاً) من الرفقاء القوميين الاجتماعيين لدعم بعض المواقع المعزولة نسبياً مثل الدكوانة وجسر الباشا وبياقوت حيث لنا وجود حزبي ملحوظ، أو لحراسة المراكز الحزبية المنفردة خصوصاً مركز الحزب الرئيسي في جل الديب. وغالباً ما كانت جريدة من الرفقاء التابعين لمنفذية الضاحية الشرقية متواجدة بشكل دائم في مركز جل الديب لمواجهة حشود الكتائب والأحرار وبعض عناصر الدرك اللبناني الذين حاولوا على مدى أشهر إسقاط المركز المعزول بين بساتين البرتقال في تلك المنطقة. وللعلم فقط، فإن الشهيد الوحيد الذي سقط دفاعاً عن جل الديب هو الرفيق حسين علي إبراهيم نزهة (من النبي عثمان) التابع لمديرية حرش ثابت في منفذية الضاحية الشرقية.

كنا نستبدل هؤلاء المقاتلين كل 15 يوماً، أو حسب الظروف الأمنية وشدة الحصار المفروض على مركز جل الديب. لم تكن هذه المهمة سهلة على الإطلاق، فالطرقات غير آمنة وحواجز الجيش والدرك لم تكن حيادية أبداً. وكان المسلك الأفضل بالنسبة إلينا يمر عبر حرش ثابت - بياقوت - جل الديب من خلال البساتين المشجّرة في حلكة الليل. وأذكر أن أمين ورامز شاركا مرات عدة في حماية مركز جل الديب إلى جانب الحرس المركزي المتواجد هناك أساساً.

ظل الوضع على هذا المنوال حتى أواخر صيف العام 1975 عندما استدعتني قيادة الحزب إلى بيروت الغربية بهدف تكليفي بمهمة حزبية خارج الضاحية الشرقية، بل وخارج الكيان اللبناني. وهكذا غابت عني أخبار معارك الحرب الأهلية طيلة الشهور التي استغرقتها مسؤوليتي الخارجية التي شهدت إنقطاعاً شبه تام عن الإتصال مع مركز الحزب أو مع أي من القيادات الحزبية. لكن عندما تغيرت الظروف، عدت إلى بيروت لأيام معدودات حيث تلقيت

نبأ استشهاد الرفيق أمين علي حسين في منطقة حارة الغوارنة القريبة من جل الديب.

وقد روى لي الرفقاء لاحقاً تفاصيل الواقعة. كان الرفيق أمين ضمن مجموعة من الرفقاء المكلفين بحماية مركز جل الديب عندما شنت القوات الإنعزالية هجوماً واسعاً على حارة الغوارنة المجاورة، وغالبية سكانها من الشيوعيين والمناصرين لهم. لم تكن المعركة متكافئة، لذلك استنجدت القيادة الشيوعية المحلية بالمسؤولين القوميين في مركز جل الديب، لفك الحصار وإنقاذ الشيوعيين وعائلاتهم وتأمين انسحابهم بأقل خسائر ممكنة. تطوع الرفيق أمين وعدد من الرفقاء للتوجه إلى ساحة المعركة في محاولة أخيرة لصد الهجوم الإنعزالي، وفتح طريق الإنسحاب أمام سكان حارة الغوارنة باتجاه جل الديب أو بياقوت حيث الأوضاع أكثر أمناً.

وأخبرني الرفقاء أن المجموعة القومية المقاتلة، وعلى رأسها الرفيق أمين، أبلت بلاء حسناً وأوقعت خسائر كبيرة في صفوف القوات الكتائبية المدعومة بمصفحات قوى الأمن الداخلي اللبنانية. وكان أمين، كما عرفته في معارك الضاحية الشرقية، ينتقل من مكان إلى آخر برشاشه الذي يعجز عن حمله - في العادة - مقاتلان إثنان على الأقل، ويُصلي الأعداء نيراناً موجعة. غير أن موازين القوى لم تكن لصالح المدافعين، وأخذت الحلقة تضيق عليهم شيئاً فشيئاً... فما كان منه إلا أن طلب من كل المقاتلين الآخرين، قوميين وشيوعيين، الإنسحاب بأسرع وقت ممكن بينما يتولى هو تأمين الخط الدفاعي الأمامي إلى آخر لحظة.

وأوفى أمين بوعده وقسمه، وظل يقاتل في موقعه حتى آخر طلقة. وعندما سقط مضرجاً بدمائه كان الرفقاء كلهم، ومعهم المقاتلون الشيوعيون وعائلاتهم، قد وصلوا إلى مناطق آمنة. واعترف الجميع يومها بأنه لولا شجاعة الرفيق أمين الفائقة لكانت الخسائر في الأرواح بين المقاتلين والمدنيين فادحة للغاية.

جاء أمين علي حسين إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي هرباً من الشيوعيين، وساعياً إلى قوة حزبية يواجههم بها. واستشهد الرفيق أمين علي

حسين دفاعاً عن الشيوعيين وعائلاتهم. وبين دخوله مكتب منفذية الضاحية الشرقية في صيف العام 1974 وسقوطه البطولي لحماية سكان حارة الغوارنة، حقق الإنتماء القومي فعله الساحر في وجدان إبن حولا، تلك البلدة الجنوبية الحدودية، فإذا هو أكبر بكثير من المماحكات المحلية الإقطاعية الضيقة... أسعدية كانت أو شيوعية!



حتى القرش الأخير!

أنجزنا، الرفيق حبيب كيروز وأنا، آخر تفاصيل المهمة التي سافرنا لأجلها إلى بغداد. قررنا أن أبقى أياماً عدة بعد أن يسافر الرفيق حبيب، أولاً لمتابعة بعض المسائل المشتركة مع حلفائنا والاتفاق على برنامج عمل مستقبلي، وثانياً لأننا كنا بحاجة ماسة للوقوف على حقيقة الأوضاع في الكيان اللبناني في أعقاب تدخل "قوات الردع العربية" (ومعظمها من القوات الشامية) لوقف الحرب الأهلية في أواخر العام 1976.

كانت قد وصلتنا أخبار ومعلومات غير مطمئنة عن خلافات جذرية رافقت دخول "قوات الردع العربية" إلى الأراضي اللبنانية. وقعت صدامات دامية بين الجيش الشامي وحلفائه من جهة والمنظمات الفدائية الفلسطينية وحلفائها من جهة أخرى. وساعد هذا الخلاف في ترسيخ انشقاق الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي وقف كل جناح فيه مع أحد طرفي النزاع. لكن الأخطر بالنسبة إلينا تمثل في إقدام مجموعات من جناح إنعام رعد، مدعومة بالأحزاب اليسارية وبعض المنظمات الفلسطينية، على مهاجمة مقرات ومراكز الجناح الآخر بقيادة إلياس جرجي قنيزح... قبل أن تستقر الأمور لصالح وجود القوات الشامية في لبنان بغطاء سياسي عربي ودولي رسمي.

المهم أن الرفيق حبيب بعث إليّ برسالة شفهية تؤكد أن عودتي إلى بيروت ضرورية وآمنة، مشيراً في الوقت نفسه إلى ترتيبات محددة أعدت في

مطار بيروت الدولي بحيث يتم تجاوز حواجز المخابرات الشامية التي كانت قد وسعت انتشارها في المطار ليشمل قاعات وصول المسافرين أيضاً. وكنت قد طلبت من الرفيق حبيب أن يتصل شخصياً بأحد أقربائي، وهو ضابط كبير في أحد الأجهزة الأمنية اللبنانية الرسمية بالمطار، ليعلمه بموعد وصول الطائرة التي تقلني. كما جرى التنسيق مع الرفيق وديع الحلو الذي كان يلعب دور رابط الاتصال بين الحزب والمخابرات الشامية على مستوى الكيان اللبناني. وهكذا، بين جهود قريبي الضابط الكبير وتداخلات أطراف حزبية عدة، تمكنت من مغادرة المطار دون التعرض لأية مضايقات...

أشياء كثيرة كانت قد تغيرت في لبنان خلال فترة غيابنا عنه، ومعظمها نحو الأسوأ. الانقسام الطائفي أقام الحواجز بين شطري بيروت الشرقي والغربي، والميليشيات على أنواعها ألغت مؤسسات الدولة وباتت الحاكم بأمره بين الناس. لكن الأخطر كان الفساد الفظيع الذي تسلل إلى كل الأحزاب من دون استثناء. ولم ينجُ جناحا الحزب السوري القومي الاجتماعي من مؤثرات عناصر الإفساد المرتبطة بالمال السياسي والنفوذ المخابراتي. جناح ارتبط بالمنظمات الفلسطينية والأحزاب اليسارية مستفيداً من أموال النفط الليبية والعراقية، وجناح آخر حطّ رحاله في أحضان المخابرات الشامية العاملة تحت غطاء "قوات الردع العربية"، والتي لم يبقَ منها سوى القوات الشامية، فحقق مكاسب حزبية وشخصية وعائلية من خلال تلك العلاقات!

كنا، كمجموعة ذات طبيعة خاصة، نعتمد على التمويل الذاتي في نشاطاتنا القومية الاجتماعية، ورفضنا دائماً أية مساعدات من حلفائنا وأصدقائنا كي لا نصبح أسرى الحاجة إليهم. رفقاء كثر، بعضهم من الموظفين وبعضهم من المهنيين، كانوا يقدمون لنا ما يغطي نفقات تنقلاتنا بين بيروت والمناطق، خصوصاً جنوب لبنان والعرقوب حيث كان لمنظمة "الزوبعة" قواعد محددة يتمركز فيها عشرات من الرفقاء المقاتلين. وقد ربطتنا علاقات تنسيق ميدانية مع المنظمات الفلسطينية، لم تكن لتتأثر بالمماحكات السياسية في بيروت، ما أمّن لنا مصدراً مضموناً من الأسلحة والذخائر.

أما الوضع في العاصمة فكان مختلفاً تماماً. الرفيق أنطون أبو سليمان

المهاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية آنذاك وضع تحت تصرفنا شقته المتواضعة في أحد الشوارع المتفرعة من شارع الحمراء، فأصبحت مقراً ومأوى لحوالي عشرة رفقاء ممن هجّرتهم الحرب الأهلية بين 1975 و1976، من بينهم الرفيق حبيب كيروز والرفيق مفيد القنطار وأنا. وفي معظم الليالي، كان يأوي إلى هذه الشقة ما لا يقل عن عشرين رفيقاً جاءوا إلى بيروت لألف سبب وسبب. صحيح أن المنامة مؤمنة بطريقة أو بأخرى، لكن ماذا عن الأكل؟ وماذا عن السجائر لمدمني التدخين؟ وماذا عن مصاريف التنقلات وما شابه؟

عشنا تلك الفترة وفق مبدأ "أعطنا خبزنا كفاف يومنا". رفيقات وقريبات وصديقات كن يقصدن الشقة بالتتابع، يُحضرن معهن مونة "من حواضر البيت" ليطبخن منها ما يسد الرمق. وفي حالات الضيق الشديد، كنا "نتمشى" صوب بيوت القوميين بقصد "الزيارة" متعمدين أن يكون ذلك في أوقات الغداء أو العشاء... لكن أصحابها كانوا من الحصافة والنباهة بحيث أدركوا يوماً بعد آخر أن "هؤلاء الزوار" جوعى في حقيقة الأمر! بيت رزق الله وبيت المهتار وبيت حاماتي وبيت الحلو وغيرهم يجودون بما توافر، لا شكوى ولا تذمر بل محبة وعطاء واحتضان لجميع الرفقاء.

تنقلاتنا ندبرها إجمالاً مع رفقاء ومواطنين يملكون سيارات تؤمن وصولنا إلى الجنوب حيث قواعد "الزوبعة" أو إلى البقاع حيث وحداتنا الحزبية وخزاننا البشري. وبين الحين والآخر، يأتي إلى الوطن رفقاء مغتربون فيقدمون لنا بعض العون المالي المحدود. ومع ذلك كنا "ننقطع" كلياً في معظم الأوقات، فلا مال للأكل أو للتنقل أو للدخان، فنستدين من هنا وهناك أو ننتظر الفرج على شكل نجدة مالية من رفيق مقتدر أو رفيق مغترب. وكانت أسوأ الظروف عندما يتدهور الوضع الأمني، فلا يعود بالإمكان زيارة أحد أو استقبال أحد.

ذات يوم، في مرحلة أمنية عصيبة، كنتُ والرفيق حبيب كيروز واقفين على شرفة الشقة نتبادل أحاديث عامة. كانت الشوارع شبه خالية من السيارات

والمارة بسبب الاشتباكات العنيفة الدائرة في المناطق المجاورة بين "أبناء الصف الواحد"! سألني الرفيق حبيب عما إذا كان معي أي مبلغ من المال. أخرجت من جيبي بعض القطع النقدية التي لم تصل قيمتها إلى أكثر من ستين قرشاً لبنانياً. قلت له وأنا أضع النقود في راحة يده الممدودة: "هذا كل ما معي، فماذا تريد أن تشتري؟" أجابني وهو يُخرج من جيبه قطعاً نقدية أخرى: "سأشتري بعض السجائر، وربما يتبقى ما يكفي لشراء رغيف أو رغيفين للغداء".

قصد الرفيق حبيب محل السمانة الموجود عند زاوية الشارع، ثم عاد بعد دقائق قليلة وفي يده بعض الخبز، وبين شفتيه سيجارة مولعة. وقف إلى جانبي في الشرفة التي لم أكن قد غادرتها بعد. خيّم الصمت علينا لدقائق، بينما كان هو يتلذذ بالدخان الذي حُرم منه منذ ساعات الصباح. بعد قليل مد يده نحوي ممسكاً بين أبهامه والسبابة قطعة نقدية من فئة الخمسة قروش وقال: "خذ هذه الخمسة قروش، حتى أحلف اليمين أمامك بأنني لم أعد أملك أي قرش". تناولتُ القطعة النقدية بلا تردد، وأبقيتُ يدي ممدودة وأنا أتأمل "كل ما نملك من أموال منقولة" في تلك اللحظات. ثم رميت الخمسة قروش إلى الشارع الخالي، وأنا أقول للرفيق حبيب: "...وها أنا أيضاً أحلف اليمين أمامك بأنني لم أعد أملك أي قرش"!!

ابعد عنا الشرير!

كان اسم الرفيق محمود غزالي متداولاً بين القوميين الاجتماعيين منذ العام 1969 بوصفه أحد الصحافيين العاملين في جريدة "النهار". لكنه لم يحظ بشهرة إعلامية مميزة كونه من كتاب المواضيع الاقتصادية... والاقتصاد مادة جافة في أفضل الأحوال، على رغم أهميته للفكر القومي الاجتماعي آنذاك.

في الأول من أيار سنة 1970، أقام الحزب السوري القومي الاجتماعي احتفالاً مركزياً في إحدى صالات العرض السينمائي في منطقة برج حمود – النبعة، التابعة لمنفذية الضاحية الشرقية التي كنتُ ملتحقاً بإحدى مديرياتها. ووقع على عاتقنا تأمين الحماية اللازمة للمهرجان الذي كان من أوائل الإطلالات الشعبية للحزب بعد خروج القيادة من السجن.

الخطيب المركزي كان الدكتور عبدالله سعادة. وقد سبقه في الكلام الرفيق غزالي متحدثاً عن ظروف العمال وأهمية التخطيط لبناء اقتصاد يقوم على الإنتاج، وعلى توزيع الغنى لا على توزيع الفقر. لكن من سوء حظ الرفيق غزالي، بل بسبب ضعف التنظيم، أن ترتيب كلمته جاء بعد قصيدة شعبية حماسية ألقاها الرفيق الشاعر خالد زهر، فألهبت مشاعر الحضور الذين ما عادوا قادرين على استيعاب الكلام الاقتصادي المعتمد على الأرقام والتحليلات المنطقية.

تلك المناسبة كانت فرصة لقائي الأول بالرفيق غزالي. بعد ذلك تقاطعت طرقنا مرات عدة في العمل الصحافي الذي شكل بالنسبة إليّ مهنة مؤقتة خلال السنوات التي سبقت اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية سنة 1975. عملي في أرشيف جريدة "البناء" بين 1971 و1974، وعلى فترات متفرقة، لم يُفسح لي مجالاً واسعاً لمعرفته على المستوى الشخصي. غير أن مقالاته، الموقعة باسمه الصريح أو بأسماء وهمية، كشفت لنا جوانب من قدراته الصحافية المتنوعة خصوصاً أسلوبه الانتقادي اللاذع.

بعد توحيد جناحي الحزب في تشرين الثاني سنة 1978، تم دمج جريدة "البناء" ومجلة "صباح الخير" في مطبوعة واحدة هي "صباح الخير – البناء" التي استأنفت الصدور أسبوعياً، واحتضنت الكادر التحريري الحزبي كله، وترأس تحريرها الرفيق غزالي. وكنتُ في ذلك الوقت قد امتهنت العمل الصحافي في جريدة "السفير"، إلى جانب النشاط الحزبي المعتاد. فتوليت في "صباح الخير – البناء" رئاسة القسم السياسي للشؤون العربية. وكانت تلك بداية مرحلة الاحتكاك اليومي مع الرفيق غزالي لمدة ثلاث سنوات.

في اجتماعات التحرير الأسبوعية، وفي لقاءات المحررين اليومية برئيس التحرير، كان الرفيق غزالي يعطينا جميعاً، خصوصاً جيل الشباب، كل ما اختزنه من خبرات في عمله الصحافي المديد، ولكن بطريقة غير مباشرة. لم يكن "أستاذاً" لنا بقدر ما كان موجهاً ومربياً يعتمد الصداقة وسيلة للتثقيف. كان ينظر إلى الصحافة كجزء من حركة النهضة القومية، ويرى أن الصحافيين القوميين هم أولاً وقبل أي شيء آخر رسل توعية لكل المواطنين. وكثيراً ما شرح لنا الفارق الكبير بين أن تكون الصحافة مرآة لأحوال الأمة أو أن تكون منارة لمستقبلها.

هذا في الأسلوب، أما في المضمون (وأقصد بذلك فهم الأحداث السياسية والغوص في خلفياتها وأبعادها)، فقد كان ينظر إلى المسائل القومية والعالمية من خلال وعيه العميق للمنهج القومي الاجتماعي الذي نشأنا عليه جميعاً. لم يسمح للتحالفات السياسية الآنية (وهي مؤقتة بطبيعتها) أن تحرف أنظاره عن الصورة القومية الأشمل. وغالباً ما كان يُسدّد آراءنا بالكشف عن

معلومات حصل عليها من مصادره الواسعة الإطلاع لتأكيد نقطة معينة تغني تحليلاتنا السياسية. وفي الوقت نفسه، كان يحرص على سماع كل ما عندنا، في السياسة كما في الثقافة كما في الفن... فنحن بالنسبة إليه هيئة تحرير قومية عليها أن تكون منارة الفكر القومي الاجتماعي في مرحلة ما بعد الحرب الأهلية اللبنانية.

أما الدرس الذي تلقنته منه شخصياً، وشكل لي علامة فارقة في مسيرة عملي الصحافي في لبنان أولاً وفي بريطانيا لاحقاً، فقد جاء بطريقة عرضية. استدعاني ذات صباح إلى مكتبه وقال لي إن الملحق الإعلامي بالسفارة العراقية في بيروت إتصل به طالباً اقتراح أحد الأشخاص لترجمة مقابلة أجريت مع مسؤول عراقي كبير ونشرت في مجلة "ماندي مورنينغ" الصادرة باللغة الإنكليزية في لبنان. وبما أنني خريج قسم اللغة الإنكليزية وآدابها بالجامعة اللبنانية، فيمكنني تعريب النص لقاء مبلغ مالي نتفق عليه بعد إنجاز المهمة. فرحبت بالفكرة، إذ أن أي مدخول إضافي في تلك الظروف سيكون موضع ترحيب حار!!

كان ذلك في العام 1978، أي بُعيد توقيع "ميثاق العمل القومي" بين بغداد ودمشق في مواجهة تصالح الرئيس المصري أنور السادات مع الكيان الصهيوني. يومها نشطت السفارة العراقية على مختلف الأصعدة ومع جميع الأطراف في لبنان للتعويض عن مرحلة الانكفاء التي ترافقت مع دخول قوات الردع العربية (معظمها من الجيش السوري) لوقف الحرب الأهلية في لبنان. ذلك أن العلاقة بين جناحي حزب البعث الحاكمين هنا وهناك كانت قد وصلت إلى الحضيض قبل إعلان الميثاق. ومن الطبيعي أن يكون الترحيب والدعم والمساندة لهذه الخطوة التوحيدية في صميم إعلامنا القومي الاجتماعي.

أنهيت تعريب المقابلة خلال يومين، وسلمت النص الذي أعدت كتابته بخط أنيق (لم تكن الطباعة منتشرة بين المحررين في ذلك الوقت) إلى الرفيق غزالي الذي أبلغني أنه سيتولى إرساله مع الساعي إلى مقر السفارة العراقية في منطقة الرملة البيضاء. لم نتحدث عن بدل الترجمة طالما أن الأمر كله متروك

له. في اليوم التالي، استدعاني إلى مكتبه وقال لي إن الملحق الإعلامي تسلم النص وأعجبته الترجمة، وهو يريد أن يتعرف إلى المترجم ويعطيه المبلغ المالي المطلوب شخصياً. وقبل أن أعلق على هذا الكلام، أضاف: "لقد رفضتُ اقتراح الملحق، وقلت له إن إدارة المجلة هي التي طلبت من الرفيق تعريب المقابلة، وبالتالي هي المعنية بقبض المبلغ وتسليمه إلى صاحبه... فليس من عادة الرفقاء الصحافيين أن يطرقوا أبواب السفارات لقبض الأموال، حتى لو كانت من حقهم"! ثم فتح درج مكتبه وأخرج منه مغلفاً مغلقاً، وقال: "في المغلف مبلغ 300 ليرة لبنانية هي البدل الذي رأيته مناسباً".

ترددتُ في الاستفسار منه عن خلفية موقفه هذا. فأنا، من جهة أولى، أثق بحسن تقديره للأمور، فلو لم يكن هناك ما يستدعي مثل ذلك التصرف لما أقدم عليه. أما من الجهة الثانية، فقد كنت سعيداً بالمبلغ الذي يوازي المخصص الشهري الذي كنت أتقاضاه في مجلة "صباح الخير – البناء". ومع ذلك ظلت المسألة تلح في ذهني بين الحين والآخر، إلى أن سنحت لنا الفرصة ذات يوم بعد إنجاز غلاف عدد من "صباح الخير ـ البناء" كنت قد كتبت موضوعه الأساسي.

جلسنا منفردين في مكتبه، بعد أن أعددنا كوبين من الشاي. بدأ حديثه بالقول إنه سمح لنفسه باتخاذ القرار في ما يتعلق بعدم الذهاب إلى السفارة، وكذلك تحديد قيمة بدل الترجمة. قاطعته قائلاً: إن المبلغ يزيد عن المطلوب، لكن ما سر رفضه التوجه إلى السفارة علماً أننا كصحافيين كثيراً ما نقصد السفارات لحضور حفلات رسمية أو ديبلوماسية متنوعة؟

إبتسم بهدوء وهو ينفث دخان سيجارته في اتجاه بعيد عني لأنه يعرف كرهي الشديد للتدخين. قال: "يا رفيق أحمد، هناك فارق كبير بين حفلات رسمية أو ديبلوماسية يحضرها حشد من الناس وتجري على رؤوس الأشهاد، وبين زيارة إلى السفارة على انفراد لقبض مبلغ هو حق طبيعي لك. الناس لن تنظر إلى هذا الواقع بعيون بريئة، لأنها لا تدرك الصورة كاملة! هذا من جهة، أما الأخطر فهو أن الديبلوماسي الذي سيقدم لك المبلغ المستحق إنما يحاول أن يورطك، أنت وغيرك، في هوة الارتزاق بحيث تصبح عبداً

للمدفوعات الدورية التي قد تكون مجانية في بداياتها، لكنها ستصبح مدفوعة الثمن لاحقاً... وغالباً ما يكون الثمن باهظاً جداً. هناك خيط رفيع جداً بين أن تقيم علاقات مشروعة مع الأطراف المختلفة وأن تنخرط في الارتزاق لتصبح رقماً جديداً على لوائح المدفوعات التي تعدها السفارات للذين يصطفون كل شهر أمام الأبواب الديبلوماسية لقبض جعالاتهم".

ثم نظر في عينيّ بتمعن وهويقول: "عليك أن تتذكر دائماً عبارة: إبعد عنا الشرير...آمين"!



"المايسترو"

اللقاء الأول مع الأمين ميشال نبعة كان عن بُعد، بين ممثل معروف على خشبة المسرح وبين شاب في مقتبل العمر مقبل على الدعوة القومية الاجتماعية. كنا نسمع عنه كثيراً: هو واحد من مجموعة عاملين في الحقل المسرحي، ممثلين ومخرجين ومؤلفين، إما أعضاء في الحزب السوري القومي الاجتماعي أو من المحبذين له. أسماء كانت تتردد في أوساطنا الشبابية أمثال نضال الأشقر وأنطوان كرباج وميشال نبعة وروجيه عساف وعصام محفوظ ورضا كبريت وغيرهم.

شاهدناه في مسرحية "الديكتاتور" لعصام محفوظ سنة 1968، وأدهشنا بطرافته وحضوره في المسرحية الغنائية "يعيش يعيش" للأخوين رحباني سنة 1970، ثم تابعناه مع رضا كبريت في مسرحية "الستارة" التي فازت بجائزة مهرجان المسرح في دمشق سنة 1973. لكن كان عليّ الإنتظار حتى النصف الثاني من سنة 1974 لأتعرف عليه شخصياً، وأعمل معه في جريدة "البناء" الحزبية وقتما كانت تصدر في ساحة الدباس قبيل اندلاع الحرب الأهلية سنة 1975.

كان الأمين ميشال مقتراً في كتاباته، لكن القليل الذي نشره شكل مدرسة نقدية مميزة قامت على ركيزتين أساسيتين: وعي عقائدي قومي راسخ من جهة، واطلاع عميق وشامل على الحركات الثقافية القومية والعالمية من جهة

أخرى. غير أن الحظ حالفنا باكتشاف جانب آخر من شخصيته، كان بالنسبة إلى تطورنا الصحافي - الثقافي - المناقبي أكثر فائدة من ابداعاته على أهميتها.

عشقَ الأمين ميشال دور المخرج، أو كما قال لي ذات يوم مسترجعاً عبارة مشهورة للرفيق الأديب سعيد تقي الدين: "إن المرساة تغرق نفسها لكي يستقر سواها". كان يفضل أن يرعى ويصقل الأصوات الشابة الجديدة في مختلف المجالات الابداعية، ويشعر بالارتياح العميق عندما يكتشف كاتباً مميزاً أو شاعراً واعداً. وكثيراً ما كان يفاجئنا بترك مكتبه في "البناء" ويخرج إلى القاعة حيث كنا نعمل محررين ومسؤولين عن الأرشيف، طالباً منا الإصغاء إلى مقالة معبرة أو قصيدة جميلة جاءته من شخص غير معروف.

ذات يوم من سنة 1974، وكنت في القاعة أعمل على ترتيب قصاصات الصحف والصور لتوضيبها في الأرشيف، دخل فتى لا أظنه تجاوز سنوات المراهقة المبكرة، يرتدي قميصاً صيفياً فوق سروال قصير. ألقى التحية بخجل، وسأل ما إذا كان المكتب يتبع جريدة "البناء"، فرددت بالإيجاب. سلمني بعض الأوراق المطوية بعناية وهو يقول: "هذه قصيدة أتمنى أن تنشر في باب بريد القراء إذا وجدتم أنها صالحة للنشر، وشكراً". ثم غادر من دون أن يذكر لي اسمه.

فتحتُ الأوراق، ونظرتُ إلى أسفل الصفحة الثالثة لأجد توقيع "عبده وازن" في ختام القصيدة النثرية. لم يكن الأمين ميشال في المكتب آنذاك، وعندما وصل بعد حوالي الساعة سلمته الأوراق من ضمن مجموعة مقالات وصحف كانت بانتظاره. في هذه الأثناء، بدأت القاعة تكتظ بالمحررين والمصممين وبعض الزوار. فجأة خرج الأمين ميشال من مكتبه وسألني عن "عبده وازن"، فقلت إنني لا أعرف عنه شيئاً. ثم سأل الرفقاء الحاضرين، فأجابوه بمثل ما أجبته به. قال: "لا يهم، إسمعوا هذه القصيدة الجميلة". وراح يلقيها بصوته الجهوري، مرفقاً إياها بتعابير وجهه وحركات يديه وكأنه بالفعل على خشبة مسرح أمام جمهور هو نحن. وقد نُشرت القصيدة في العدد التالي من "البناء" ليس في باب "بريد القراء" بل في صفحة مستقلة في قسم الثقافة.

باعدت الحرب الأهلية اللبنانية بيننا بصورة مؤقتة. ظل هو منخرطاً في العمل الحزبي الإداري والفكري والثقافي في حين أخذتني المسؤوليات الحزبية إلى مهمات مختلفة. ثم التقينا مجدداً في "البناء" أواخر سنة 1977 بعدما إنتقل مركز الحزب والجريدة إلى منطقة "جل البحر" القريبة من مسبح الجامعة الأميركية في بيروت. كنت بدأت آنذاك العمل الصحافي الفعلي، خصوصاً في القسم الثقافي. وفي ظل إدارة الأمين ميشال، أدركت الأبعاد الحقيقية لمعنى "المخرج" الذي يغرس في دور كل ممثل جزءاً من ذاته من دون أن يكون هو في الواجهة تماماً.

إجتماع التحرير الأسبوعي مع الأمين ميشال كان بمثابة ورشة عمل تستغرق معظم ساعات النهار. كل موضوع، أساسياً كان أو ثانوياً، يجب أن يُطرح للنقاش والتشريح. والجميع، من رئيس الحزب الذي كان يشارك في بعض الأحيان إلى المحررين المبتدئين، مدعوون للمشاركة الفاعلة. كان الأمين ميشال يستمع إلى البحث بلذة، ويطرح الأسئلة المتحدية بذكاء، ويكشف الجوانب الغامضة بدهاء... ثم يوجه الحوار إلى حيث يجب أن يكون: وجهة نظر الحزب في الأحداث واستشرافه لها، والموقف القومي الاجتماعي من التطورات... والإبداع الذي هو من صميم النفس السورية المتضمنة كل حق وكل خير وكل جمال.

كان الأمين ميشال أقلنا كتابة ونشراً. ومع ذلك كنا نشعر جميعاً أنه "المايسترو" الذي لولاه لما إنسجمت كتاباتنا لتشكل كل أسبوع قطعة موسيقية متناغمة هي "البناء". ولم يكن ليتردد في خرق المألوف في عالم الصحافة، طالما أن الإبداع والتجديد هما غايته النهائية. وقد عايشتُ ميزته الخاصة هذه في "البناء" حتى سنة 1980 عندما غادرتُ إلى لندن، ومن ثم في مشاريع مشتركة لصالح "دار فكر" إلى ما قبل وفاته بأشهر قليلة سنة 1996.

غير أن الواقعة التي تشكل مفصلاً في علاقتي بالأمين ميشال، وفي ما صرتُ إليه مستقبلاً على الصعيد الإعلامي، حدثت في مطلع سنة 1978. كنا نستعد لإصدار عدد خاص بمناسبة الأول من آذار، ذكرى مولد سعاده. وقد

أصرّ الأمين ميشال على أن تكون "البناء" متمايزة عما اعتاد القوميون والمواطنون عليه، لذلك دعا إلى عقد اجتماعات تحرير مكثفة بهدف وضع تصور شامل للعدد الخاص. وفي ختام أحد هذه الاجتماعات، قلت له إنني كتبت قصيدة نثرية أظن أنها تصلح للنشر في هذه المناسبة، فطلب مني إحضارها في اليوم التالي... ففعلت.

عرفتُ من خلال الاجتماعات أنه قرر نشرها في العدد الخاص. لكنه لم يناقشني فيها أبداً، ولم يقرأ مقاطع منها على الرفقاء في أوقات راحتنا كعادته دائماً عندما يقرر نشر قصيدة ما، بل لم يُشر إليها إلا مرة واحدة في سياق تعداده للمواد التي أصبحت جاهزة للنشر. ومن جهتي، شعرتُ بالحرج في الاستفسار عن رأيه فيها، فتركتُ الأمور تجري في أعنتها طالما أن القصيدة ستنشر، وهذا هو المهم بالنسبة إليّ.

كانت "البناء" تُطبع في مطبعة تجارية خاصة. الموعد الرسمي لصدور العدد يوم الإثنين، لكن الأعداد تكون جاهزة للتوزيع صباح يوم السبت، وبعضها يصل إلى مكتب "البناء" في وقت متأخر من مساء الجمعة. وكعادتي في كل صباح، توجهت إلى مقهى "الهورس شو" في شارع الحمراء حيث كان بعض الرفقاء يلتقون هناك قبل الإنتقال إلى مكاتب الجريدة لعقد اجتماع التحرير الأسبوعي. كان الأمين ميشال قد سبقنا إلى المقهى، ومعه على ما أذكر الرفيقة عفاف زين والرفيق غسان الأشقر. وأمامهم على الطاولة، قرب فناجين القهوة، مجموعة أعداد من "البناء" – العدد الخاص. ألقيت نظرة سريعة على الغلاف، ثم تطلعت بدهشة نحو الأمين ميشال الذي ارتسمت على شفتيه ابتسامة بالكاد تظهر تحت شاربيه الكثيفين اللذين لونت شيبتهما صفرةُ دخان السجائر.

لم يكتفِ الأمين ميشال بنشر قصيدتي "بكاء توما عند الصليب" في مكان بارز وعلى صفحات عدة، إنما طلب من الفنان التشكيلي أمين الباشا وضع مجموعة من الرسوم المعبرة من وحي القصيدة... واختار لوحة منها لتكون هي غلاف العدد الخاص!!

لا تضطجع ويداك متسختان!

أطلقنا عليه لقب "المعلم" تحبباً، لسببين: الأول أنه كان أستاذاً لنا في فن الكتابة الصحافية والتحليل السياسي واستقراء الأحداث العاصفة في منتصف سبعينات القرن الماضي. والثاني عادته اليومية الثابتة في البحث عنا في مقاهي شارع الحمراء في بيروت لجمعنا وسوقنا إلى منزله حيث تنتظرنا مائدة، عادية في مرات وعامرة في معظم المرات، لكنها غنية دائماً باللقمة الشهية والكأس الممتعة والحوارات المعمقة... والطرفة البديهية الصاخبة.

الرفيق وديع الحلو عملاق جسد وعملاق صحافة وعملاق مائدة وعملاق مودة. عرفناه في بادئ الأمر من خلال مقالاته في جريدة "النهار" وملاحقها مراقباً سياسياً متمعناً ومحللاً دقيقاً للأحداث القومية والعربية والعالمية ومستشرفاً لما يحمله المستقبل من تطورات مفصلية في حياة سورية والعالم العربي. ثم زاملناه في "البناء" و"صباح الخير ـ البناء"، وإن تحت إسم مستعار نظراً إلى حساسية النشر في مطبوعتين محليتين متنافستين، فأكتشفنا فيه جوانب شخصية حميمة لم تكن المقالات السياسية وحدها قادرة على إيصالها إلينا.

ظهر لقب "المعلم" للمرة الأولى بعد جلسات تحرير عدة تشاركنا فيها بجريدة "البناء". كان من مسؤوليته أن يتولى كتابة تحليلات في الشأنين السوري والعربي، من دون أن يغفل بالطبع عن القضايا الدولية ذات التأثير البالغ على منطقتنا. في اجتماعات التحرير المخصصة لمناقشة وتحديد مواد العدد المقبل، كان وديع يطرح على الحضور موضوعاً أساسياً محدداً ثم

يسألنا رأينا في أبعاده ومعانيه وأسلوب معالجته وفق المنهج القومي الاجتماعي في قراءة الأحداث. وبينما نحن نغوص في نقاشات تشرح وتحلل وتوضح، كان هو يشعل غليونه الذي لم يفارقه آنذاك، ويتمعّن فينا وعلى شفتيه تلك الإبتسامة المميزة التي تجمع بين مشاعر الصداقة مع جيل قومي اجتماعي يطل مشرفاً على الحقل الإعلامي الملتزم وبين السعادة لدقة النظر السياسي كما يبديه ذلك الجيل.

وسرعان ما نشأت صداقة من نوع خاص بين "المعلم" وعدد من الرفقاء، حبيب كيروز ومفيد القنطار وكمال الجمل وعدنان طيارة وحسن فخر الدين وأحمد أصفهاني... وغيرهم. لقاءاتنا اليومية تكون إما في مكاتب "البناء" وبعدها "صباح الخير ـ البناء" أو في أحد مقاهي شارع الحمراء. لكن الأكيد أن سهرة العشاء (كل مساء تقريباً) محكوم عليها بأن تنعقد في منزل الرفيق وديع حيث تكون بإنتظارنا زوجته الرفيقة دوثي. وغالباً ما إنضم إلينا شقيقا دوثي وشقيقتها، إيلي وغسان وسعاد. إذ لم يكن وديع ودوثي يهنأ لهما طعام وشراب إذا لم يشاركهما فيه رفقاء وأصدقاء يستطيبون النبيذ اللبناني المعتق الذي خزّنه "المعلم" فوق "تتخيتة" بيته المجاور لثكنة الحلو!

وكان هناك جانب آخر في شخصية وديع تكشّف لنا شيئاً فشيئاً إبتداء من منتصف العام 1974، إذ يبدو أن القيادة الحزبية كلفته ببناء علاقات سياسية مع بعض الأطراف الرسمية في الكيان الشامي فعكف على ذلك بسرية مطلقة وديبلوماسية دقيقة أسفرت لاحقاً عن نشوء حالة من التعاون والتحالف مع دمشق في خضم الحرب الأهلية التي إندلعت في نيسان سنة 1975. وظهرت أهمية العلاقة التي نجح وديع في نسجها مع المسؤولين الشاميين عندما دخلت القوات الشامية النظامية إلى الكيان اللبناني في إطار "قوات الردع العربية" التي سعت إلى وقف حمام الدم اللبناني ـ الفلسطيني في صيف العام 1976.

يومها خرجت علاقات وديع مع المسؤولين الشاميين، خصوصاً القيادات العسكرية، إلى العلن. ذلك أن المهمات المنوطة بالقوات الشامية في لبنان أخذت تتطلب متابعة ميدانية حثيثة إستطاع "المعلم" إدارتها بنجاح. فكانت

تلك فرصة مناسبة لينظم لقاءات تعارف بين عدد من الكوادر الحزبية من جهة وكبار الضباط الشاميين في دمشق وبيروت من جهة أخرى. وهو فعل ذلك بتجرد كامل ومن دون أن تخطر في باله (كما حدث لغيره في التسعينات) فكرة أن يحتكر صلة الوصل مع القيادات الشامية، أو أن يوظفها في منافع ذاتية (أيضاً كما حدث لغيره في التسعينات!) . بل كان حريصاً كل الحرص على استثمار ثقة دمشق به لتحقيق الفوائد المرجوة للحزب وللقوميين الاجتماعيين على حد سواء.

وأتيح لي شخصياً مرافقته في بعض زياراته إلى دمشق بمهمات رسمية، وكذلك إلى لقاءات متنوعة مع القيادات العسكرية الشامية في شتوره وبحمدون وضهور الشوير وبيروت. ولاحظت كيف أنه كان يصرف من جيبه الخاص على المآدب التي كان يدعو إليها كبار الضباط الشاميين، وعلى شراء الهدايا القيمة لبعض من يقصدهم في دمشق. فقد ظلّ هو نفسه في حياته العامة كما في حياته الخاصة، وكأن المطاعم التي يستضيف الآخرين فيها هي امتداد لبيته الذي يستقبل الرفقاء كل مساء تقريباً. لم أسمعه مرّة يتأفف أو يحتج أو يشكو. ولم أره مرّة يرفض طلب رفيق الحصول على رخصة حمل سلاح من قيادة "قوات الردع العربية" أو أمر مهمة للمرور عبر الطريق العسكرية في المصنع عند منطقة الحدود اللبنانية ـ الشامية. وديع الحلو كان النقطة المفصلية في علاقة الحزب مع دمشق.

أصعب مرحلة مرّ بها الرفيق وديع على صعيد الإتصالات مع الشام جاءت في أعقاب توحيد الحزب في تشرين الثاني سنة 1978. ذلك أن جناحي الإنشقاق كانا ينظران إلى تلك العلاقة بطريقة مختلفة تماماً. أحدهما يميل أكثر إلى منظمة التحرير الفلسطينية، في حين يحرص الآخر على تحالف متين مع دمشق. ولعل رئاسة الدكتور عبدالله سعاده في تلك الفترة، بدعم من عصام المحايري الذي كان رئيساً في الجناح الثاني، هي التي سهّلت مهمة وديع في متابعة التنسيق مع القيادات الشامية... من دون أن يعني ذلك توقف "الحرتقات" التافهة من قبل بعض الحزبيين المرتبطين بالمنظمات الفلسطينية.

في مطلع العام 1980، وافق الرفيق وديع على أن يكون إشبين زواجي في

كنيسة "مار بطرس وبولس" في شارع الحمراء، فتعززت بذلك علاقات متميزة بيننا في مجلة "صباح الخير ـ البناء" وفي بعض الإتصالات السياسية. رافقته في عدة زيارات إلى دمشق، وحضرت معه بعض اللقاءات مع مسؤولين شاميين، فلم ألحظ أي تغيير في نمط تعاطيه معهم جميعاً. لم تتبدل شخصية "المعلم" لا في الصحافة ولا في الديبلوماسية. وحتى عندما أنتخب إنعام رعد رئيساً للحزب، وهو المعروف بمشاعره السلبية تجاه دمشق، واصل وديع نشاطه السياسي لمصلحة الحزب ولمصلحة القضية القومية من دون أي تردد.

حكمتْ عليّ ظروف العمل في أواخر العام 1980 أن أغادر الوطن إلى لندن للمشاركة في تحرير إحدى المطبوعات العربية هناك، فلم تحل المسافة البعيدة دون متابعة صلاتنا الخاصة. كانت مقالاته وتحليلاته بالنسبة إلينا في المغترب مؤشراً إلى تطور الأوضاع في الوطن، في حين كان يطلب مني خلال محادثاتنا الهاتفية أن أنقل إليه أجواء الإعلام البريطاني وكيفية نظره إلى الأحداث في عالمنا العربي. فقط عندما وقع الغزو الصهيوني صيف العام 1982، إنقطع التواصل بيننا وإن كنتُ سعيتُ دائماً إلى تسقط أخباره بين الحين والآخر من الرفقاء المسافرين أو من بعض الأصدقاء المشتركين في دمشق.

... ثم عرفتُ بعد مدة أنه قرر الإنتقال إلى قبرص للعمل مع إحدى وكالات الأنباء.

صُدمت! لماذا تخلى "المعلم" عن نشاطه الحزبي والصحافي والسياسي بين بيروت ودمشق؟ ما الذي تغيّر حتى يتخذ مثل هذا القرار ويبتعد عن عائلته ورفقائه وأصدقائه؟ عندما عاودتُ الإتصال به من لندن، حاولتُ مرات عدة، بطريقة غير مباشرة، الإستفسار منه عن سبب تلك القطيعة الغريبة وغير المتوقعة... فلم أنجح. كان ديبلوسياً في إجابته، وذكياً في تهربه. لذلك أسقطتُ الموضوع برمته، وأكتفيتُ بأحاديث العائلة والسياسة. غير أنني كوّنتُ فكرة عامة تقوم على قاعدة أن "المعلم" ما كان ليضحي بمصداقيته ونظافة

يده أمام مد الفساد اللبناني ـ الشامي الذي أخذ ينتشر كالسرطان بين السياسيين والحزبيين في لبنان. وحدهم الذين أحنوا الهامات وزحفوا على البطون تمكنوا من حجز أماكنهم في جنة الفساد والإفساد خلال تلك الفترة الحالكة من تاريخنا! وديع، الذي أعرفه، لا يمكن أن يكون منهم. فهو لم يستنوب ولم يستوزر ولم يبن القصور الشامخة... بل إنزوى في "نجمة" الهلال الخصيب يكسب رزقاً كريماً لعائلته!

قبل وفاته بمدة قليلة، وكنتُ عرفتُ أنه أجرى جراحة معقدة في قبرص، إتصلتُ به مطمئناً. ووصل بنا الحديث إلى الشؤون الشخصية والعائلية، فألمحتُ إلى أن الوقت بات مناسباً له للعودة إلى بيروت؟ أجابني قائلاً إن الظروف السياسية والعائلية، والأجواء السائدة في لبنان والشام، لا تسمح بذلك. وعندما ألححتُ عليه في السؤال، ردّ بسخريته المرّة: هل تتذكر "رفة جناح" مشهورة نشرها رفيقنا سعيد تقي الدين في أحد كتبه؟ ألم "يزجره" أبوه، من قبره، قائلاً له: "لا تضطجع إلى جانبي إلا وأنت نظيف اليدين"!



"جماعة" سليم!!

قبل إنجاز نفق القنال الأوروبي الذي يربط إنكلترا بالبر الفرنسي بين "دوفر" و"كاليه"، كان السفر بالقطار من لندن إلى باريس يستغرق معظم ساعات النهار. ننطلق صباحاً من محطة "فيكتوريا" في قلب العاصمة البريطانية متجهين إلى ميناء "دوفر" في رحلة بطيئة تتثاءب على مدى ساعتين أو أكثر، هذا إذا لم تقع أعطال تعرقل القطارات القديمة. وتستغرق عملية الإنتقال من القطار إلى الباخرة - العبّارة حوالي الساعة ونصف الساعة تقريباً، بما في ذلك معاملات دوائر الهجرة والجمارك في وقت لم تكن أوروبا الموحدة قد تجاوزت بعد فرض تأشيرات الدخول على المسافرين، خصوصاً إذا كانوا مثلنا - في تلك الفترة - يحملون جوازات سفر من دول العالم الثالث.

الإبحار على متن الباخرة - العبّارة يدوم ساعة ونصف الساعة في حال لم يكن الجو عاصفاً والبحر هائجاً، كما هي العادة إجمالاً، في ذلك الممر المائي الحيوي بين بريطانيا وفرنسا. ومع أن إنجاز معاملات الدخول إلى فرنسا عبر ميناء "كاليه" المزدحم لم يكن ليتجاوز الساعة، فإن الرحلة إلى باريس بالقطار السريع آنذاك كانت تستهلك بساعاتها الثلاث ما تبقى من النهار... ولذلك لا غرابة في أن معظم قاصدي العاصمة الفرنسية كانوا يسافرون بالطائرة، إلا أولئك الذين يبحثون عن الأسعار المخفضة (تذكرة القطار / الباخرة كانت الأرخص)، أو الذين لا يحبون الإنغلاق في بطون

طائرات معلقة في الهواء... وأنا واحد منهم!

هذه الرحلات كانت ممتعة ومريحة في الفترة الأولى من أسفاري المتعددة إلى فرنسا للقيام ببعض المسؤوليات الحزبية. إكتشاف الريف الإنكليزي ثم الريف الفرنسي من نافذة القطار يؤمن مساحة واسعة للتأمل لا يقطعها سوى أحاديث عابرة ومتفرقة مع زملاء السفر، وهم من جنسيات مختلفة. غير أن الملل سرعان ما يتسرب إلى النفس بعد رحلتين أو ثلاث، خصوصاً في حالتي أنا عندما كنت أتوجه إلى العاصمة الفرنسية مرة أو أكثر في الشهر لمتابعة بعض الأعمال الحزبية في إطار مسؤوليتي كمندوب مركزي لقارة أوروبا. ولذلك صار الكتاب خير جليس وأنيس في رحلتي الذهاب والإياب... على مدى الساعات العشر تقريباً التي تستهلكها سفرتنا في البر والبحر.

في إحدى تلك السفرات، تموز 1988، حملت معي من لندن كتاباً بالإنكليزية كان قد صدر حديثاً عنوانه "مَنْ كتب التوراة؟" (Who Wrote the Bible?)

وحظي بمراجعات نقدية جيدة في الصحف البريطانية والأميركية نظراً إلى المعلومات الجديدة التي احتواها وتتعلق بالمدى الزمني لكتابة أسفار "العهد القديم"، وهوية الأحبار والكتبة الذين وضعوا صيغتها النهائية كما وصلت إلينا.

وبالفعل، كان الكتاب ممتعاً جداً، ومعلوماته غنية وموثقة ومثيرة للإهتمام. وتمكنتُ في رحلة الذهاب من قراءة قسم كبير من الفصول، مع تسجيل بعض الملاحظات الخاصة هنا وهناك، على أمل أن أنجز في رحلة العودة القسم الثاني، أو على الأقل معظم الفصول الباقية التي يتوصل فيها المؤلف ريتشارد فريدمان إلى استنتاجاته القائمة على تمحيص نقدي دقيق للمصادر التوراتية القديمة.

في رحلة العودة لم يكن القطار المنطلق من "غار دي نور" في باريس مكتظاً، وجلستُ وحيداً في مقصورة تتسع في العادة لأربعة أشخاص، فتمكنت من قراءة فصول عدة من الكتاب. ثم توقفنا في "كاليه" للإنتقال إلى الباخرة - العبّارة حيث لا مجال للقراءة بسبب زحمة المسافرين، إذ أن ركاب

عشرات السيارات ينضمون إلى مسافري القطارات والباصات على ظهر الباخرة وفي صالوناتها الفسيحة. يُضاف إلى ذلك أن معظمنا يتوجه إلى جناح "السوق الحرة" للتبضع بأسعار تقل كثيراً عن مثيلاتها في السوق البريطانية الداخلية، خصوصاً العطورات والمشروبات الكحولية والسجائر والأدوات الكهربائية.

القطار البريطاني الذي كان ينتظرنا في ميناء "دوفر" لم يكن بسعة أو ترتيب القطار الفرنسي الذي أوصلنا إلى "كاليه". وهكذا وجدت نفسي محاطاً بثلاثة ركاب آخرين مع حقائبهم وبضائعهم: جلس إلى جانبي شاب يبدو عليه أنه طالب جامعي عرفت لاحقاً أنه بلجيكي، وفي المقعد المقابل سيدتان أدركت من لكنتهما وحديثهما أنهما أميركيتان، أم وابنتها.

ولم أكن في وارد مد حديث متشعب لا معنى له مع جيراني الثلاثة، فقد كان الكتاب بانتظاري لأكمل ما تبقى من فصوله. واكتفيت بكلمات تعارف روتينية معهم قبل أن أغوص مجدداً في الصفحات، ورحت أسجل بين الحين والآخر بعض الملاحظات السريعة على محتويات الكتاب أو أضع سطوراً خفيفة بقلم الرصاص تحت بعض العبارات كي أرجع إليها في وقت لاحق عند الحاجة. وعندما يكون الواحد منا مستغرقاً في نص ممتع كهذا البحث، فإن الساعتين اللتين يتطلبهما القطار للوصول إلى محطة "فيكتوريا" تمران بسرعة كبيرة.

توقف القطار في محطة فرعية قرب مدينة "أشفورد" حيث ترجل الشاب البلجيكي، وبقينا نحن الثلاثة نتابع ما كنا فيه. غير أنني لاحظت، في خضم استغراقي في الكتاب، أن السيدتين الأميركيتين كانتا تتهامسان بين الحين والآخر وهما تحدقان بي وبالكتاب. وكثيراً ما كانت الإبنة تنحني نحو أمها وتسر في أذنها ببعض العبارات... ثم تعاود الإثنتان النظر إلى الكتاب وابتسامة خفيفة تعلو وجهيهما.

خلال الدقائق العشرين التي تسبق الوصول إلى محطتنا النهائية يصبح من الصعب التركيز على القراءة، ذلك أن الركاب يبدأون في الاستعداد للنزول، فيكثر الهرج والمرج حيث يسعى كل واحد منهم إلى سحب حقائبه وأغراضه

عبر الممرات الضيقة لوضعها أقرب ما يكون من أبواب العربات حتى يسبق غيره في الترجل عندما يقف القطار... وهذا ما أفعله أنا أيضاً، لكن من دون حقائب كثيرة!

أغلقتُ الكتاب ووضعته داخل حقيبة اليد الصغيرة، وأنزلت حقيبة الملابس المتوسطة الحجم من الرف المخصص لها فوق رؤوسنا، وجلست أنتظر دخول القطار إلى محطته النهائية. عندها بادرتني الإبنة الأميركية بسؤال عن هويتي، فأجبتها بأنني من لبنان ومقيم في لندن حيث أعمل في إحدى الصحف العربية الصادرة هناك. أخبرتني أنها أميركية، وهي مع أمها تقومان حالياً بجولة أوروبية تنتهي في لندن قبل العودة إلى أميركا. وقالت لي إنها طالبة في إحدى الجامعات الأميركية، وتعرف عدداً من الطلاب العرب من بينهم لبنانيون. فعلقتُ على عبارتها الأخيرة بالقول إن هناك ألوفاً من الطلبة اللبنانيين الذين يدرسون في الخارج، خصوصاً بعد اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية. سألتني إن كنت أعرف أحداً منهم، فهززت رأسي موافقاً لكن من دون ذكر أسماء (وذلك بسبب الحرص الأمني أولاً، ولأنني نسيت أسماء بعضهم ثانياً).

تشعّب الحديث إلى موضوعات أخرى في ما تبقى من الوقت. فجأة قالت لي الإبنة: "لي صديق في الجامعة مقرّب إلى نفسي جداً، وهو من لبنان أيضاً، ويتابع تخصصه في الطب". وانسجاماً مع الحديث الدائر، سألتها عن اسمه، فأجابت: "سليم... سليم مجاعص. هل تعرفه؟". إستفسرت منها قائلاً: "هل هو من خريجي الجامعة الأميركية في بيروت؟". ردت بحماس: "نعم، نعم... هل تعرفه حقاً؟". قلت: "إذا كان سليم مجاعص الذي تتحدثين عنه هو ذاته سليم مجاعص الذي أتحدث عنه، فالجواب: طبعاً أعرفه، وقد عملنا في بيروت سوياً في حقول فكرية وسياسية قبل الحرب الأهلية اللبنانية وخلالها".

هبّت الفتاة واقفة وكأن مساً أصابها فجأة، وأخذت تصرخ بصوت حماسي موجهة الكلام إلى أمها المنذهلة: "ألمْ أقل لك، ألمْ أقل لك طيلة الرحلة إن أصدقاء سليم وزملاءه هم أكثر الناس اهتماماً بمثل هذه المواضيع التي

يتناولها كتاب (مَنْ كتب التوراة؟)"... وراحت تكرر عبارة "ألمْ أقل لك، ألمْ أقل لك؟" مرات ومرات بإحساس من السعادة الغامرة، وترفقها بعبارة أخرى: "كنتُ أعرف ذلك، كان إحساسي ينبأني بذلك"!!

وبعد أن هدأتْ قليلاً، وعادتْ إلى مقعدها المواجه لي، سألتها عن القصة... فقالت: "عندما لاحظتُ نوعية الكتاب الذي كنتَ تقرأه، وكيف كنتَ تسجل الملاحظات في هوامش الصفحات، وأدركتُ من ملامح وجهك أنك من منطقة الشرق الأوسط، حدّثتُ والدتي عن متابعة سليم لمثل هذه الموضوعات، وأخبرتها عن "جماعته" واهتمامهم بالكتابات التاريخية والآثارية والتوراتية نظراً إلى علاقتها بالوضع السياسي لبلادهم السورية. وأكدتُ لوالدتي أيضاً أن "جماعة" سليم فقط هم الذين يعرفون كيف يتعاملون مع هذه الجوانب الفكرية الثقافية". ثم أضافت: "كدتُ أنفجرُ من الفرح عندما أخبرتني أنت أنك تعرف سليم، وأنكما عملتما معاً في بيروت. عندما أصل إلى أميركا سأتصل به وأحدثه في الأمر".

أبطأ القطار سرعته وهو يتهادى إلى محطة "فيكتوريا" حيث توقف نهائياً. أنزلنا الحقائب ووقفنا على الرصيف نتبادل عبارات الوداع الروتينية. إبتسمت الإبنة (التي غاب عن بالي إسمها) وهي تُدخل ذراعيها الواحدة بعد الأخرى في حمّالات حقيبة الظهر الثقيلة، ثم ودعتني وهي تربت بحنو على كتف والدتها العجوز قائلة: "ألمْ أقل لك، ألمْ أقل لك... إنهم "جماعة" سليم"!!



رفيقنا ... الشيخ

بعد مضي أشهر على خروج القياديين الحزبيين من السجن بموجب العفو العام في لبنان سنة 1969، استعاد الحزب رخصة جريدة "البناء" التي كان قد فقدها في أعقاب فشل الثورة الانقلابية في آخر يوم من سنة 1961. وهكذا بات للحزب صوت ناطق باسمه في وقت كانت الساحة اللبنانية مشرعة على كل الاحتمالات السياسية والأمنية.

جمعتْ مكاتب "البناء" عدداً كبيراً من الرفقاء، محررين وإداريين وفنيين. وكانت بمثابة مركز حزبي رديف يلتقي فيه القوميون الاجتماعيون من مختلف المناطق. هناك تعاملتُ للمرة الأولى مع الرفيق بهيج العنداري، إبن الشيخ فهد "خطاط الجمهورية اللبنانية". كانت خطوطه تزين "البناء" أسبوعياً، ولم يكن أي منشور أو ملصق أو كتاب حزبي يصدر في تلك الفترة إلا وبصمات الرفيق بهيج واضحة عليه.

كنتُ تابعاً لمنفذية الطلبة الجامعيين آنذاك، بينما كان الرفيق بهيج مقيماً في منطقة فرن الشباك وملتحقاً بمنفذية المتن الجنوبي. لكن مكاتب "البناء" شكلت صلة الوصل اليومية بيننا. وفي فرن الشباك تعرضنا سنة 1971 للتجربة الأولى، أو ما أسميناه "معمودية الدم". فقد دأبت القوى الانعزالية من "حزب الكتائب" و"حزب الوطنيين الأحرار" على التحرش بالقوميين الاجتماعيين، خصوصاً في ثانوية فرن الشباك الرسمية. وفي أحد الأيام

تطورت الاشتباكات المدرسية بعد أن استحضر الانعزاليون ميليشياتهم للاعتداء على الطلبة القوميين. وسرعان ما استهدف هؤلاء أيضاً مكاتب الحزب في فرن الشباك وعين الرمانة، حيث تصدى القوميون على قلة عددهم لعشرات المعتدين المسلحين بالمسدسات والرشاشات الحربية. كان الرفيق بهيج بين المدافعين عن مكتب الحزب في فرن الشباك، وقد أصيب بالرصاص في ركبته.

وما إن وصلت أنباء هذه الاعتداءات إلى مسامع القوميين حتى أُعلن الاستنفار العام في الصف الحزبي، وأقدم الرفقاء على احتلال مكاتب "حزب الكتائب" في عدد من بلدات المتن الشمالي والضاحية الشرقية، بينما كان الأمين ديب كردية يقود مجموعات القوميين في فرن الشباك وعين الرمانة على الرغم من تدخل قوى الأمن الداخلي المتواطئة مع الانعزاليين. هذا الرد السريع والحازم كان كفيلاً بانقاذ الرفقاء المحاصرين، ومن بينهم الرفيق الجريح بهيج.

وعلى مدى سنوات، ترسخت علاقة خاصة مع "الرفيق الشيخ" شهدت عليها أروقة الصحافة من "البناء" إلى "الديار" إلى "صباح الخير - البناء"... ثم إلى لندن التي تحولت بعد اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية إلى "عاصمة" غير رسمية للصحافة العربية المهاجرة. كان الرفيق بهيج من أوائل الذين "هاجروا" إلى عاصمة الضباب للعمل في الصحف العربية الصادرة هناك. وقد جمع بين امتلاكه ناصية الخط العربي الكلاسيكي ومتطلبات النشر الصحافي، فإذا به المبدع الأول في التصميم والإخراج والطباعة. كما أنه أنتج مجموعة من الحروف الخاصة به تحولت مع الزمن إلى أشكال كلاسيكية متجددة.

على المستوى المهني، واجه الرفيق بهيج تحديات جديدة في لندن تمثلت بالنشر الإلكتروني الذي أخذ يهدد مهنة الخط التقليدية. غير أنه أدرك بحسه الفني المرهف أن برامج النشر بواسطة الكومبيوتر ستظل بحاجة إلى الأحرف العربية ذات الجماليات الخاصة. لذلك عكف، بالتعاون مع خبراء الكومبيوتر، على تطوير سلسلة من الأحرف العربية المناسبة لتطبيقات النشر الإلكتروني...

فكان رائداً في هذا المجال، وما تزال أحرفه توزع حتى اليوم مع عشرات برامج النشر، وبعضها تمت قرصنته وسرقته دون حسيب أو رقيب.

هذا الفنان المبدع لم ينس قط أنه رفيق قومي اجتماعي اتخذ العقيدة شعاراً له ولعائلته وبيته، تشاركه في ذلك زوجته الرفيقة آمال طرزي العنداري. كان بيته مفتوحاً لكل من يزور لندن، يجنّد نفسه لخدمة من يحتاج نصيحة أو مساعدة. ونادراً ما كان منزل بيت العنداري يخلو من ضيف مقيم أو ضيف زائر، خصوصاً في منتصف ثمانينات القرن الماضي عندما تدفق إلى بريطانيا ألوف من طالبي اللجوء القادمين من لبنان والشام. وكان بهيج يصرف على الآخرين من جيبه الخاص، لا يسأل ولا يتأفف!

عندما ازداد عدد القوميين "المهاجرين" إلى لندن سنة 1980، أصبح الرفيق بهيج مسؤولاً عن استقبالنا جميعاً. وصرنا نحن "ضيوفه" في الأشهر الأولى لإقامتنا في عاصمة الضباب. كان دليلنا في كل شيء: من استخدام قطار الأنفاق، إلى التبضع من محلات البقالة اليونانية أو التركية التي تبيع مواد غذائية متوسطية ومشرقية، وصولاً إلى كيفية قيادة السيارة في بلد تسير مواصلاته "عكس السير"! ولم يكن الأمر مقتصراً على القوميين فقط، وإنما شملت رعاية الرفيق بهيج القريب والغريب على حد سواء.

حزبياً، حافظتْ مديرية المملكة المتحدة المركزية على وحدة صفها في مواجهة الأزمات الحزبية الداخلية خلال ثمانينات القرن الماضي. وكان بهيج عاملاً منضبطاً، لكنه كان أيضاً من أبناء الحياة. أقبل على الدنيا أحياناً حتى كاد يغرق في خضمها، وابتعد عنها في أحيان أخرى وكأنه يأس من مشاكلها. وفي جميع الحالات دأب على مواجهة الناس بالبسمة الطيبة التي لا تحمل ضغينة. فهل كانت له أخطاء؟ نعم، أخطأ. أخطأ بحق نفسه، وأخطأ بحق عائلته... غير أنه نادراً ما كان يخطيء بحق الآخرين. أما إذا فعل، فكان من كبر النفس وسعة الصدر ما يجعله يبادر شخصياً إلى كسر جدران الجليد.

سعاده لم يأتنا مؤمناً بالخوارق والمعجزات، بل بالحقائق التي هي نحن. والرفيق بهيج كان حقيقة ساطعة بكل أبعادها الإنسانية. اختلفتُ معه مرات كثيرة، وتضاربتْ آراؤنا في أمور حياتية وحزبية متفرقة. وأعترفُ بخجل أنني

كنت، في بعض الأحيان، قاسياً في تشددي. لكن اتصالاً هاتفياً واحداً منه كان يكفي: "يا رفيق أحمد وينك... ألم يقل الزعيم: إذا كنتم ضعفاء وقيتكم بجسدي؟ اشتقنالك". فإذا بالحواجز والتحفظات تتساقط، وضحكته النابعة من أعماق القلب تعيد ما كاد أن ينقطع، فلقد كان أكثرنا لهفة وحنواً ومودة. وكان من الطبيعي أن ينهي اتصاله بالدعوة إلى مناقيش الزعتر والبطاطا والجبنة على الطريقة الطرزية أو إلى الشاورما المعدة على الطريقة العندارية!

وفي عز عطائه، ضربه مرض "موتور نيورون" الذي يقتل الجهاز العصبي تدريجياً، ولا يوجد علاج له حتى الآن. وراح يذوي بين أيدينا، حتى لم يعد يتحرك في جسده سوى أصابع يده اليمنى ولا تصدر عنه إلا بعض الكلمات المبهمة. قبل وفاته بثلاثة أشهر، أقمنا احتفال الأول من آذار في قاعة فسيحة تتسع للقوميين الاجتماعيين وأصدقائهم وعوائلهم. وقد حمل بهيج جسده المنهك وجاء على كرسيه المتحرك ليشارك رفقاءه فرحة ذكرى ميلاد الزعيم. كنا معاً على إحدى الطاولات عندما وضعت الرفيقة آمال أمامه بعض الطعام. وبينما هو يزدرد اللقيمات بصعوبة بالغة، إذ به يتوقف فجأة متطلعاً ناحية المائدة التي فُرشت عليها الأطعمة ويقول: "ليك فادي ووسام"... وانقطع الكلام، وغصّ، وأشرق بالدمع، وبكى.

عند الطرف الآخر من القاعة، كان ابنه فادي وابني وسام يختاران من أطايب المأكولات، ويتحدثان ويضحكان.

لماذا بكى بهيج؟

ربما كان موقناً أن المرض الذي يفتك بجسده لن يمهله حتى يرى فادي شاباً. وربما أحس أن صدر الأبوة الحاني لن يستطيع تأمين الدفء للعائلة في الليالي الموحشة. لكنني واثق أن هناك معنى آخر لدموع بهيج، معنى هو مزيج من الحزن والسعادة. كان في تلك اللحظة يرى الجيل الجديد المستمر في مسيرتنا، الجيل الذي يختزن خبراتنا وتقاليدنا ومناقبنا وينطلق أبداً إلى قمم أعلى وأسمى. في تلك القاعة كان بهيج يشاهد، وخطوات الموت تسرع نحوه، أننا أمام أجيال جديدة تنبثق منا وتأخذ عنا ثم تتجاوزنا إلى الأجمل. في حزيران سنة 2000، بعد ثلاثة أشهر على ذلك الاحتفال، أسلم الرفيق

بهيج الروح. كان يمازحني في أحيان كثيرة قائلاً: "إذا متّ قبلك فأريدك أن تكتب رثاء فيّ". وكنت أرد له الصاع صاعين فأقول: "أما إذا متّ أنا قبلك فأتمنى أن تخط لي ورقة النعي"!

في تموز من ذلك العام أقمنا في القاعة نفسها حفلة تأبين للرفيق الراحل، وقد أوفيت بوعدي له بكلمة ختمتها بالقول:

"للأديان ملائكتها وقديسوها، وللمذاهب دعاتها ومبشروها. أما للنهضة السورية القومية الاجتماعية فهناك الرجال الرجال والنساء النساء. رجال ونساء يعملون للحق والخير والجمال، يصيبون مرات ويخطئون مرات. ينتصرون في أحيان ويُهزمون في أحيان. لكنهم في جميع الأحوال فخورون بجراحهم لأنها جراح أعزاء وليست جراح أذلاء... والرفيق بهيج العنداري واحد من هؤلاء. والنهضة التي أعطاها الشيء الكثير من ابداعه، ومن دمه أيضاً، تشعر بالفخر أن تاريخه الشخصي والابداعي امتزج بتاريخها العام.

"نكابر إذا قلنا إن عزاءنا بالأهل والرفقاء والأصدقاء يمكن أن يخفف من وقع خسارتك علينا. إننا نفتقدك. وعندما أودعناك التراب، تساقطت من شجرة أعمارنا وريقات كثيرة هي بعض من ثلاثين سنة تربط بيننا. إن لندن التي احتضنت هجرتنا أكثر من عشرين سنة ستصبح أكثر غربة وبرودة ووحشة بعد رحيلك المبكر أيها الرفيق الشيخ".



أستاذي... رفيقي

قام قسم اللغة الإنكليزية وآدابها التابع لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعة اللبنانية على أكتاف أستاذين من الكيان الشامي هما الدكتور غسان المالح والدكتور ياسر الداغستاني، تساعدهما أستاذة أميركية هي الدكتورة ميريام كوك. لم يكن الدكتوران المالح والداغستاني متفرغين تماماً لكلية الآداب، وإنما كانا يوزعان وقتهما بالتساوي تقريباً بين الجامعة اللبنانية والجامعة السورية بدمشق.

طلاب السنة الأولى في كلية الآداب كانوا يدرسون جميعاً ما يُسمى بـ "شهادة الثقافة العامة" التي تؤهلهم في السنة التالية لاختيار التخصصات المتنوعة من أدب عربي وأدب إنكليزي وأدب فرنسي وفلسفة وعلم نفس وتاريخ وجغرافيا وغيرها من العلوم الإنسانية. وهكذا وجدتُ نفسي في السنة الدراسية 1972 - 1973 أحد الطلبة الذين يتابعون محاضرات الدكتور المالح (الذي كان رئيس القسم أيضاً) في عصور الأدب الإنكليزي، ومحاضرات الدكتور الداغستاني في فقه اللغة الإنكليزية. أما الدكتورة كوك فكانت تغطي الأدب الأميركي في عصوره المختلفة... وهي ليست كثيرة على أية حال!

كان مجلس فرع الاتحاد العام لطلبة الجامعة اللبنانية في كلية الآداب يلعب دوراً حيوياً في تنظيم العلاقة بين الطلبة وإدارة الجامعة، ويتدخل في كثير من القضايا التعليمية والإدارية بالتنسيق مع الأساتذة ورؤساء الأقسام.

وحدث في تلك السنة أن أحزاب الحركة الوطنية والحزب السوري القومي الاجتماعي شكلت لائحة واحدة فازت في انتخابات اللجنة التنفيذية للاتحاد بمواجهة قوى اليمين المنضوية تحت لواء "حركة الوعي". وكنت آنذاك قد أصبحت مديراً لمديرية كلية الآداب التابعة لمنفذية الطلبة الجامعيين، وممثلاً للحزب في مجلس فرع الاتحاد.

وسرعان ما لاحظنا أن "حلفاءنا" في مجلس الفرع غير مرتاحين لوجود أستاذين شاميين في قسم اللغة الإنكليزية وآدابها، خصوصاً أن أحدهما يتولى رئاسة القسم. وحجتهم في ذلك أن من الضروري "لبننة" كل الطاقم التعليمي في الجامعة اللبنانية. ولذلك راحوا يعملون للتضييق على هذا القسم تحديداً، ويتدخلون بشكل سافر في شؤونه الداخلية، ويحرضون الطلبة على تقديم مطالب غير معقولة، منها - على سبيل المثال - أن يُوزع الأساتذة محاضراتهم مكتوبة قبل إلقائها في قاعة التدريس. علماً أن الطريقة المعمول بها آنذاك كانت أن يلقي الأستاذ محاضرته بينما يُسجل الطلبة ملاحظاتهم، ثم في مرحلة لاحقة يتم طبع المحاضرات وتوزيعها.

وكان من الطبيعي أن نرفض كحزب سوري قومي اجتماعي مثل هذه الدعوات الكيانية "الانعزالية"، وواجهنا بحزم كل ما من شأنه أن يسيء إلى الدكتورين المالح والداغستاني. وقد تحركنا في مسارين يُكمل أحدهما الآخر: أولاً، منع مجلس الفرع من تبني أية توصية في هذا الاتجاه. وثانياً، العمل بين طلبة القسم لتشكيل جبهة عريضة داعمة للأساتذة وقادرة على التصدي لأية محاولات قد تهدف إلى تحريض مؤيدي "الحركة الوطنية" بين طلبة القسم.

ونجحنا على مدى السنوات الثلاث التالية في حماية أساتذة القسم. وأدرك الجميع أن الطلبة السوريين القوميين الاجتماعيين، يدعمهم معظم طلبة القسم، هم بالمرصاد لأية نزعات كيانية تستهدف الأساتذة الشاميين في الجامعة اللبنانية كلها، وليس فقط في كلية الآداب. ولذلك لم تعد مسألة "لبننة" الطاقم التعليمي تحتل أولوية في البرامج المطلبية للاتحاد العام لطلبة الجامعة اللبنانية. وغالباً ما كنا نحيط الدكاترة المالح والداغستاني وكوك علماً

بما يجري سواء في مجلس الفرع أو بين الطلبة بكل ما له علاقة بأوضاع القسم. واعترف هنا بأنهم، خصوصاً المالح والداغستاني، لم يتدخلوا قط في تلك المواجهة. بل ظلوا حريصين على الالتزام بأخلاقيات مهنة التعليم وبالقواعد الإدارية المعمول بها في الجامعة.

كان المالح والداغستاني يعرفان أن الطلبة القوميين الاجتماعيين يواجهون منفردين تلك الدعوات الكيانية المغرضة. لكنهما لم يباشرا معنا أي حديث سياسي أو حزبي على مدى السنوات الثلاث التي قضيتها شخصياً في القسم. ونحن أيضاً لم نستشف ما يمكن أن يشي بانتماءاتهما الحزبية والسياسية، وظلت علاقتنا بهما محكومة بالاعتبارات التعليمية على الرغم من المودة الحميمة التي نشأت بينهما وبين غالبية الطلبة على مختلف مشاربهم.

تخرجتُ في صيف العام 1975، وكانت فتنة الحرب الأهلية اللبنانية قد أطلت برأسها لتصبح أكثر عنفاً ودموية يوماً بعد آخر. وأغلقتْ المؤسسات التعليمية أبوابها، بما فيها الجامعة اللبنانية، وتقطعت سبل الاتصالات والمواصلات وما عدنا نسمع شيئاً عن الدكتورين المالح والداغستاني اللذين واصلا التعليم في الجامعة السورية، في حين غادرت الدكتورة كوك عائدة إلى الولايات المتحدة الأميركية. وقد حاولتُ دائماً تسقط أخبار أستاذينا العزيزين من رفقائنا وأصدقائنا في دمشق، فكان الجواب أنهما مستمران في التدريس هناك.

انقطعتْ الأخبار نهائياً عندما غادرتُ بيروت إلى لندن أواخر سنة 1980. وساهم التدهور الأمني والسياسي الناجم عن الغزو الإسرائيلي للبنان سنة 1982 في تعذر الوقوف على أخبار دقيقة عن زملاء الجامعة وأساتذتها. لكن ابتداء من منتصف الثمانينات، رجعت الاتصالات إلى طبيعتها تدريجياً، فعرفنا أن المالح والداغستاني كانا حتى سنة خلت من ذلك التاريخ ما زالا يدرّسان في الجامعة السورية. وأخبرني أحد الرفقاء الشاميين، وكان زميلاً لنا في كلية الآداب بالجامعة اللبنانية قبل أن يعود إلى مسقط رأسه اللاذقية فور اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية، أن الدكتور الداغستاني هو في الواقع عضو في الحزب السوري القومي الاجتماعي منذ الستينات!!

للوهلة الأولى لم أصدق هذا الكلام. هل يُعقل أن الداغستاني "رفيقنا" دون أن ندري؟ وكيف استطاع أن يبقي عضويته سراً علينا وهو يرى أن مديرية كلية الآداب ذات وجود فاعل ونشاط علني؟ والأهم من ذلك كله، لماذا لم يفاتحنا في حقيقة الأمر عندما واجهنا بحزم المماحكات الكيانية التي استهدفت الأساتذة الشاميين في الجامعة اللبنانية؟

وظلت الأسئلة تضج في رأسي بين الحين والآخر إلى أن اندلعت الأزمة الحزبية الداخلية سنة 1987، بعد إعلان رئيس الحزب الأمين عصام المحايري حالة الطوارىء الحكمية في الحزب. اتخذ الرئيس يومها قراراً بتعييني مندوباً مركزياً لقارة أوروبا، طالباً مني القيام بجولات عاجلة لاطلاع القوميين الاجتماعيين على تطورات الوضع الحزبي الداخلي. وكانت سويسرا من ضمن الوحدات الحزبية التي قصدتها في أواخر سنة 1987 ومطلع سنة 1988. وقد عقدنا اجتماعات عدة في مدينة جنيف حيث تأكدتُ من الرفقاء أن الدكتور الداغستاني ملتحق بالوحدة الحزبية هناك. ولسوء الحظ لم أتمكن من لقائه خلال تينك الزيارتين بسبب وجوده في رحلات عمل خارج سويسرا.

ومع أنني اتصلت بـ "الرفيق" الداغستاني هاتفياً مرات عدة بعد ذلك، إلا أنه كان عليّ الانتظار حتى مطلع التسعينات للقائه شخصياً. هاتفني ذات يوم قائلاً إنه موجود في لندن لزيارة ابنه وابنته المقيمين في إحدى المناطق البعيدة نسبياً عن وسط المدينة، وهو يرغب برؤيتي قبل أن يرجع إلى مقر اقامته في جنيف. التقينا في أحد مقاهي "نايتسبريدج". كان مرّ على آخر لقاء بيننا حوالي العشرين سنة. لم يتغير كثيراً، وقال لي إنني أنا أيضاً لم أتغير علماً أنه يراني دائماً على شاشات عدد من الفضائيات العربية. أخبرني أنه طلّق زوجته الأسكتلندية، وأن ابنه وابنته من ذلك الزواج مقيمان في بريطانيا. وأكد لي أنه مرتاح في عمله مع منظمات الأمم المتحدة في سويسرا، وإن كان ذلك يتطلب السفر المتواصل.

وأخيراً سنحت لي فرصة طرح الأسئلة التي قلبتها في ذهني لسنوات: "...وماذا عن الحزب خلال فترة وجودك في الجامعة اللبنانية؟"

كانت المسألة بالنسبة إليه في غاية البساطة: العقد الذي وقعه مع إدارة

الجامعة كان للتدريس، وواجبه المهني يحتم عليه احترام القوانين الداخلية للجامعة التي تحظر على الأساتذة النشاط الحزبي أو السياسي. وليس من العدل أن يفرّق بين الطلبة حسب انتماءاتهم الحزبية. هو أستاذ للجميع. ومسؤولية الأستاذ، أي أستاذ، أن يُعدّ هذا الجيل الجديد علمياً وثقافياً. أما مهمة العمل الحزبي فتقع على عاتق الوحدة الحزبية في الكلية. ثم أردف يقول مبتسماً: "...ولقد قمتم بذلك خير قيام"!!

انتظرتُ لسنوات عدة قبل أن ألتقي الرفيق الداغستاني مرة أخرى، لكن هذه المرة في مقر عمله. دعاني "النادي العربي" في جنيف إلى إلقاء محاضرة موضوعها "الإعلام العربي والتحديات الراهنة" في إحدى قاعات منظمة الأمم المتحدة، فلبيتُ الدعوة في نيسان سنة 1999. وكنتُ أرغبُ في الاستفادة من هذه المناسبة لعقد اجتماعات مع الرفقاء الذين باتت تربطني بعدد منهم علاقات المودة والصداقة... ومن بينهم طبعاً الرفيق الداغستاني، الذي تمنيت أن لا يحول السفر بينه وبين المشاركة في المحاضرة وفي الاجتماعات المقررة بعدها.

رافقني مسؤول "النادي العربي" من الفندق إلى قاعة المحاضرات. المبنى يتبع إحدى منظمات الأمم المتحدة المتواجدة في سويسرا، وباحة الاستقبال الرئيسية تؤدي إلى ردهة تشكل مدخلاً غير رسمي للقاعة. في هذه الردهة، التي أنارتها شمس نيسان الساطعة، تجمع عشرات من المواطنين العرب المقيمين في جنيف، بينهم زملاء وأصدقاء ورفقاء. وكما هو متوقع، وقفنا بينهم للتعارف والترحيب وتبادل عبارات المجاملة. ثم قادني مسؤول النادي إلى القاعة حيث كان الحضور قد بدأوا في اتخاذ مقاعدهم. المدخل يواجه المنصة مباشرة، ونظراً إلى تفاوت قوة الإضاءة بين الردهة والقاعة لم أتمكن من تبيان هوية الشخص الجالس وحيداً على المنصة. لكن مرافقي، الذي يبدو أنه لاحظ علامات الاستفهام على وجهي، قال بسرعة: "الدكتور الداغستاني، عضو النادي، أصرّ بإلحاح على أن يكون هو عريف المحاضرة"!

توقعتُ كل شيء إلا هذا. اعتراني شعور هو مزيج من الرهبة والإحراج والخجل... والسعادة أيضاً. كنتُ أرغبُ في رؤيته بين الحضور يستمع إلى "تلميذه السابق" ورفيقه الحالي، لكن أن يجلس قربي على المنصة معرّفاً بي فهذا ما سيعيدني إلى أحاسيس سنوات التلمذة على يديه! عانقني بمودة وعلى شفتيه ابتسامة عريضة، وقال: "هل كنت تعتقد أنني سأفوّت هذه المناسبة؟" اكتفيت بإيمائة خجولة قبل أن أتخذ مقعدي في منتصف الطاولة. وبقينا صامتين ريثما يكتمل عقد الحضور.

بدأ الرفيق الدكتور الداغستاني كلامه بالترحيب بالحضور، وشرح بعض نشاطات "النادي العربي". ثم تحدث عني كصحافي وإعلامي وكاتب، وعاد بالذاكرة إلى سنوات الدراسة الجامعية في بيروت سارداً بعض الحوادث الطريفة. كانت مداخلته موجزة، لكن خاتمته كادت أن تربكني أمام هذا الحشد عندما قال: "يسرني الليلة أن أقدم لكم تلميذي السابق أحمد أصفهاني. ومن دواعي فخري أنه أيضاً رفيقي والمسؤول المركزي لحزبنا في أوروبا"...

مع تلك الكلمات اختفت فوارق السن والخبرة بيننا، وكنا على المنصة رفيقين يجمعهما حزب وتؤلف بينهما عقيدة!

من فلسطين... وإليها!

تبسّم الصديق العراقي عبد المحسن العباس وهو يسلمني المغلف المفتوح: "يبدو أن كاتب هذه الرسالة واحد من "جماعتكم"... مع أن الرسالة تحمل طابع دولة إسرائيل"!!

العباس يعرف أن "جماعتنا" هي الحزب السوري القومي الاجتماعي، وسبق له أن قرأ أدبياتنا الحزبية والسياسية وبالتالي بات قادراً على تمييز مفرداتنا القومية المعمول بها في كلامنا وكتاباتنا. ولذلك خرج بانطباع مفاده أن كاتب الرسالة الآتية من "إسرائيل" إما عضو في الحزب وإما من المؤمنين بالعقيدة القومية الاجتماعية.

كان ذلك في كانون الأول سنة 1989. المرسل هو إلياس فرح المنيّر، وجّه رسالته إلى العباس لأن هذا الزميل يعمل في مكتبة "الكشكول" التي أسسها في لندن الصحافي رياض نجيب الريّس، طالباً منه شراء بعض الكتب خصوصاً الصادر منها عن "دار فكر" القومية الاجتماعية. الرسالة تبدأ بعبارة "تحية قومية طيبة"، وتنتهي بـ "دم للحق"، وفي متنها توجيه شكر خاص إلى الريّس لأنه أصدر كتاباً عن الدكتور خليل سعاده "والد المعلم الكبير".

هذه عبارات قومية اجتماعية لا ريب فيها. وكنتُ عرفت في بيروت شخصياً خلال الستينيات رفيقاً من عائلة المنيّر تابعاًلمنفذية الطلبة الثانويين،

وهومن أصول فلسطينية. لكن الرسالة من "إسرائيل"، وأنا أتولى في تلك الفترة مسؤولية المندوب المركزي لقارة أوروبا ما يستوجب حذراً أمنياً دقيقاً في التعامل مع أشخاص مجهولين. ومع ذلك، فإن "رفيقاً" أو "مواطناً" من الأرض السليبة يحتاج من لندن إلى كتب حزبية سيكون من المفيد جداً أن تصل إلى أبناء شعبنا الصامدين تحت الاحتلال العنصري الصهيوني.

كتبتُ له في مطلع سنة 1990 رسالة "حيادية" إلى حد بعيد، أعلمته من خلالها أن الزملاء في مكتبة "الكشكول" حوّلوا لي رسالته بوصفي مندوب "دار فكر" في أوروبا، وأبديت استعدادنا لتزويده بكل ما يريد من مطبوعاتنا. وعمدتُ إلى تطعيم الرسالة بمفرداتنا القومية الواضحة مستهدفاً إستدراجه لإعطائي المزيد من المعلومات عنه. وفي الوقت نفسه، رفعت صادرة إلى عمدة شؤون عبر الحدود لوضعها في جو الإتصال، طالباً تزويدي بما هو متوافر في مركزالحزب عن هذا الشخص.

سجلات الحزب في الوطن خلت من أية معلومات. لكن رسالة جديدة من إلياس فرح المنيّر قدمت لي صورة أولية عنه. بدأ رسالته بـ "تحية قومية اجتماعية" وختمها كالعادة "دم للحق". ثم كتب بإيجاز عن شخصه: "أنا من مواليد اللد العام 1914. تعرفت بالمعلم في مقره ببيروت في أيلول (سبتمبر) 1937. وعلى أثر ذلك إنضممت إلى مريدي مدرسته الاجتماعية... ومن هؤلاء من قضى نحبه، ومنهم من تخاذل في سيره نحو الأفضل فسقط على قارعة الطريق. ومنهم من قتل أو استشهد. ومنهم من ينتظر... وما بدلوا تبديلاً". ثم تحدث عن مجلة "فكر" التي كانت متوقفة عن الصدور يومها. ولفتت نظري عبارته عندما تناول أعداد المجلة القديمة: "فكثير من أعدادها السابقة قد احتوى على كتابات خرجت عن نطاق المفهوم القومي الاجتماعي"، ما يؤشر إلى أنه كان مطلعاً على بعض الانحرافات الحزبية خلال السبعينيات والثمانينيات.

وأخيراً ختم رسالته بالفقرة المعبرة التالية: "أرجو المعذرة إن إستطردت في كتاباتي إليك، فأنا منذ 1939، السنة التي كنت فيها ببيروت لآخر مرّة، أعيش في محبس مظلم مشبع بجوخانق... وكانت رسالتك بمثابة كوّة فُتحت

لي في هذا المحبس لأطل منها على النور وعلى أبناء النور، ولأتنفس من ريح منعشة قد افتقدتها من خوالي السنين".

وهكذا نشأت علاقة مراسلة بيننا، وتولت مديرية المملكة المتحدة المركزية تزويده ببعض الكتب الحزبية المتوافرة لدينا في لندن. ثم طرحنا فكرة أن يتوقف الرفيق إلياس في لندن وهو في طريقه إلى الولايات المتحدة الأميركية لزيارة إبنه المقيم هناك. لكننا لم نتمكن من ترتيب سفرته سنة 1990 لأنني قلت له إنني سأمضي عطلة الصيف في الوطن مع الأهل والرفقاء، فما كان منه إلا أن كتب يقول: "كم تمنيت أن أكون في الأماكن التي زرتها في سفرتك إلى ذلك الجزء من الوطن وخصوصاً في ضهور الشوير لأؤدي إلى المعلم فروض ما هو خليق به من التكريم والإجلال... ولكن هيهات، فما كل ما يتمنى المرء يدركه".

ولم يكن التعاون من طرف واحد. فقد طلبنا من الرفيق إلياس العثور على أعداد جريدة "الكفاح" التي كان يصدرها رئيس الحزب الراحل الأمين مصطفى أرشيد في مدينة جنين بالضفة الغربية. وبالفعل تمكن من الحصول على بعض أعدادها من "الجامعة العبرية"، وأرسل لنا نسخةميكروفيلم عنها. ونظراً إلى شدة رغبته بإعادة وصل ما انقطع مع القوميين الاجتماعيين، نظمنا له رحلة إلى قبرص حيث عقد لقاءات عدة مع بعض الرفقاء هناك في أواخر تشرين الأول سنة 1991.

حاولنا دائماً تجنب الاتصالات الهاتفية لأسباب لا تخفى على ذوي الألباب. غير أن رسائله المتواصلة بين 1990 و1992 كشفت لي عن معدن قومي اجتماعي متين، وعن مناقب راقية لا تقبل الشطط. فها أنا أمام رفيق واظب دونما كلل، وعلى الرغم من ظروفه القاسية، على تثقيف نفسه بالفكر القومي الاجتماعي، علماً بأنه ظل منقطعاً ـ لظروف خارجة عنإرادته ـ عن العمل الإداري الحزبي منذ سنة 1939. وبفعل ثقافته القومية الصافية، لمس منذ البداية حجم الانحراف الذي روّجت له مقالات معينة نشرتها مجلة "فكر" في السبعينيات والثمانينيات.

وعلمت أن الرفيق إلياس كان يعمل في سنة 1989 على بحث تحت عنوان

"الإسلام الكتابي كما أفهمه من القرآن"، وذلك إنطلاقاً من القواعد الأساسية التمهيدية التي وضعها الزعيم في سلسلة مقالات "جنون الخلود"، وبالتحديد في كتاب "الإسلام في رسالتيه المسيحية والمحمدية". وقد قال لي في إحدى رسائله إنه كتب في صحف فلسطينية محلية في هذا الموضوع. وأرفق لي صورة مقال نشرته له مجلة "عبير" المقدسية بتاريخ تشرين الأول سنة 1988، جاء في إحدى فقراته: "... ونظراً لكوني أنتمي فكرياً إلى المدرسة القومية الاجتماعية التي تنادي بأننا أمة تامة، مصلحتها فوق كل مصلحة، وتحض على إزالة كافة الحواجز التي تقوم بين طبقات الأمة وتمنع تثبيت معالم هويتها حضارياً وتاريخياً، رأيت من واجبي أن أعبر..."، ثم يواصل الرد المفحم المعزّز بآيات قرآنية عديدة منتقداً من يرفض الزواج المختلط في المجتمع الفلسطيني بحجة وجود نص قرآني يمنع زواج المسلمة من كتابي!

من المؤسف أن تدهور الوضع الصحي للرفيق إلياس منعه من إكمال بحثه المهم ذاك. وعندما زارنا في لندن سنة 1992، وهو بطريقه إلى الولايات المتحدة للقاء إبنه الموجودهناك، شعرتُ أن الجسد المنهك دخل مرحلة الانهيار التدريجي... لكن الروح ما زالت متحفزة ومتوثبة. وفي عينيه المتعبتين الخارجتين من عملية جراحية حساسة تنبعث "شراقيط نور ملوهجي"، على حد تعبير شاعرنا القومي الأمين الراحل عجاج المهتار. كان الرفيق إلياس يرغب في أن يستوعب في ساعات قليلة كل ما ضاع منه خلال عقود من العزلة الرهيبة التي فرضها الاحتلال الصهيوني على شعبنا في فلسطين السليبة. دمعت عيناه عندما ودعناه في المطار، أدرك وأدركنا أن هذا سيكون لقاءنا الأخير. ظل رافعاً يده بالتحية القومية إلى أن اختفى عن أنظارنا خلف الحاجز الأمني المؤدي إلى قاعة المغادرة.

تسلمتُ بعد ذلك اللقاء الأخير رسالتين مختصرتين، ثم ثالثة تفيدنا أن حالته الصحية ليست على ما يرام... ثم انقطع التواصل. عرفنا هاتفياً أنه بات بحاجة لرعاية دائمة، ولم يعد قادراً على القيام بأي نشاط. وفي العام 2009 تلقينا اتصالاً هاتفياً من أحد أقاربه في فلسطين المحتلة يعلمنا بأن الرفيق إلياس فرح المنيّر توفي قبل أيام، ودُفن ـ بناء على طلبه ـ في إحدى مدافن حيفا.

كنتُ في مطلع أيار سنة 2010 عاكفاً على إعداد كلمة مديرية المملكة المتحدة المركزية لاحتفال من المقرر أن تقيمه الجالية اللبنانية في لندن بتاريخ 29 أيار بمناسبة "عيد المقاومة والتحرير". وفي صبيحة أحد الأيام تلقيت مغلفاً يحمل طابع "دولة إسرائيل"، يتضمن صورة فوتوغرافية ملونة لا ترافقها أية كلمات. ما كدت أنظر إلى الصورة حتى عقدت الدهشة لساني، وأصابتني قشعريرة سرت حتى نخاع العظم. الصورة الملونة هي لشاهد قبر. العبارة الأولى تقول: "هنا يرقد بالرب إلياس فرح المنيّر". وتحتها تماماً نُقشت بخط عريض على رخام أبيض الجملة التالية: "إن فيكم قوة لوفعلت لغيّرت مجرى التاريخ". ثم التوقيع في أسفل الجملة: "أنطون سعاده، أول آذار 1904 ـ 8 تموز 1949".

...ولكم أن تتصوروا مضمون كلمتي في "عيد المقاومة والتحرير"!



خاتمة... واعتذار

كان بودي سرد المزيد من حكايات القوميين الاجتماعيين المماثلة لما سبق. لكن موانع كثيرة تحول دون تحقيق رغبتي الملحة هذه. أشعر بأن للرفقاء الأصفياء ديناً هائلاً في عنقي، فقد اندمجت حياتنا جميعاً، الشخصية والعائلية، في حركة النهضة بحيث بات من الصعب وضع فواصل أو هوامش بين العام والخاص. بعض تلك الموانع يتعلق بالرفقاء أنفسهم، بظروفهم الحياتية وأماكن تواجدهم والمسار الذي صاروا عليه. وبعضها الآخر مرتبط بالأحداث ذاتها، والتي لم يحن بعد وقت الإفصاح عن تفاصيلها وخلفياتها.

الرفقاء الواردة أسماؤهم في النصوص ليسوا الوحيدين في عطاءاتهم وإنجازاتهم. إنهم القمة الظاهرة للعيان من جبل الجليد الغائص معظمه في محيط النهضة القومية الاجتماعية. وقد كان شرفاً لي لا يُقدر أن أكون معهم: أن يقودوا مسيرتي وأن أقود مسيرتهم، أن أطيعهم وأن يطيعوني، أن نتفق وأن نختلف... لكن في كل الأوقات الحلوة والمرة كنا نتقاسم شظف الحياة وهناءها، لأننا وحدنا أبناء الحياة الممتلئون بفيض محبة لا تحد لهذه الأمة ولهذا الشعب.

أردت من هذه الحكايات البسيطة المُعبرة أن أظهر الوجه النقي الساطع للإنتماء الحزبي، لإنتمائنا نحن في الحزب السوري القومي الاجتماعي. أصحابها لم يتصرفوا بتلك الطريقة سعياً وراء شهرة أو تكالباً على منصب أو

تشاوفاً على الآخرين. بل هم جسّدوا على أرض الواقع وفي دورة الحياة الاجتماعية قيم "الإنسان الجديد" الذي تعمل العقيدة القومية الاجتماعية على صقله شيئاً فشيئاً. قد تطول عملية البناء، لكن النتيجة المتوخاة هي تلك المنارات المشعة في تاريخنا الحزبي العريق.

لا شك عندي في أن هناك ألوف القصص الشبيهة يختزنها القوميون الاجتماعيون في وجدانهم، ويسردونها في سهراتهم واجتماعاتهم... وأنا آمل في أن تشجع هذه المبادرة الآخرين على تسجيل ما يمكن أن نسميه "ذاكرتنا القومية المُعاشة"، بحيث تنشأ في مجموعنا وتنتشر في متحداتنا تقاليد وعادات جديدة تقوم على منظومة قيم أخلاقية ومناقبية تكون النقيض لمنظومة الفساد والانحطاط المستشرية في أوساط واسعة من مجتمعنا السوري.

قد يكون الزمن الذي عايشه جيلنا مختلفاً عمّا يعيشه الجيل الحالي. لكن القيم المناقبية لا تتغير بين جيل وآخر، ما يتغير هو الممارسة فقط. ومقياس الحكم عليها يكون بقدر التزامها بالأخلاق التي هي أساس كل نظام يُكتب له أن يبقى. نحن الآن في زمن البطولة المعكوسة أو البطولة الفارغة، نشهد محاولات ترسيخ قيم أبطالها المخادعين على حساب البطولة المؤمنة المؤيدة بصحة العقيدة. والرفقاء الذين سردت بعض حكاياتهم هم الشاهد والشهيد على أنه ليس كل ما يلمع... ذهباً.

علمنا سعاده باكراً أن القوميين يعملون "تحت طبقة الثرثرة والصياح المنتشرة فوق هذه الأمة". والرفقاء أصحاب الحكايات السابقة ليسوا الوحيدين في عملهم الصامت المنتج المبدع. هناك جموع منهم في الوطن وفي عبر الحدود. وإذا كنت ذكرت بعضهم فقط، فعذري أنهم في القلب والفكر والوجدان دائماً وأبداً. ولهم جميعاً أقدم شكري... واعتذاري!

من معتقل الأحرار . سجن القلعة . بيروت

في ٢٠ آب ١٩٦٨

عزيزي احمد

دائماً.. وبعد اعوام زرتني، ورغم انني لا استطيع تحديد دوافعك لهذه الزيارة فقد كان فرحي برؤيتك قاسياً، وكثيراً ما يكون في قساوة الفرح عذوبة لا يستشعرها سوى الذين عاشوا آلام العيش ومفاجآت الحياة وسبحوا في غمرات الإيمان الاكبر بجمالها وفرح دفئها.

لحظة رؤيتي لك يا احمد.. ازالت الصورة الطفولية التي كانت تحتل خيالي وذكرياتي عنك وعنك، وتجسم ثقل السنوات السبع الطوال العجاف التي كان ايماني قد اختصرها من عمري لما هو اقل من دورة يوم وليلة.. هذا الايمان العجيب النابع من رسالة حياتية شاملة عظيمة جعلتنا نقف فوق رحى الزمن الدائرة فلا نحس دورانها وتكرار تدافع لياليها ونهاراتها، اقمارها وشموسها... حتى جئت انت البارحة تنتصب امامي بشبابك المتفتح للحياة، فاحسست عندها فقط بأن الايام تمر ورحى الزمن تدور. وادركت عظمة ايمان يمحو حركات الساعات الطويلة في مسيرة العمر فيما هو يعطي لتطوره ودفعه وامل سريعة ثابتة من اجل كرامة اجيال جليلة. وملايين الازاهير والبراعم في حديقة امتنا الكبيرة ان يغمرها دفء شمس المعرفة والحرية والكمال الاجتماعي الصحيح الذي بدونه يبقى الانسان مسخاً مشوهاً وقزماً مجوفاً. من اجلهم انتم وخير الانسانية كلها في المدى الطويل افتدونا نحن ان ندفع من آلامنا وحرياتنا ضريبة التطور والبعث، لتخلص الامة كلها من قيود جمودها ودمار يسرقها، وجفاف فكر يذلها، من اجل هذا الهدف انكرنا ذواتنا. وتناسينا حقنا الشخصي في الوجود والعيش.. وليس هذا فحسب، بل سرنا، ونسير حاملين صلباننا على ظهورنا بلا امل او رجاء فردي، نواجه النكران بالبسمة، ونتقبل الجحود حتى من الاهل والاعزاء والاصدقاء بشكر. لانّنا منذ أدينا قسم العمل لخير الامة وخلاصها، عرفنا ان الآلام لم يسبق لها مثيل في التاريخ تنتظر كل ذي نفس كبيرة منا..

احمد. اخبرتني انك في سبيل الحصول على شهادة البكالوريا.. فاتمنى لك النجاح. ومن هذا التقدير تجدني اكتب لك آملاً ان تفهم ما اقصد اليه وتعي ما احدثك به. لست اعلم مدى ما تذكره من طفولتك.. ولكني اعرف انني كنت اعتبرك ولداً لي.. فطالما حملتك بين ذراعي.. وارتاح رأسك الصغير بوداعة على صدري ولفني باطمئنان الطفولة.. ولطالما اسبغت عليك وعلى اخوتك من حناني وحبي.. وما تزال صورتك في خاطري وانت تلجأ الي بمشاكلك الصغيرة واسئلتك التي ما كنت تجد لها اجوبة عند والديك.. فتطلبها عندي بذكاء والحاح.. كأنني يومها كنت اعتقد انني سأراك كما رأيتك البارحة، ولعلك تدرك الآن معنى قولي ان فرحي بك كان قاسياً وعذباً.. لعله فرح الزارع

يرى بعد طول غياب ، نبتة تعهدها بحنانه وآماله ... فرح اب روحي يرى ولده كما تمنى ان يراه .
فالوراثة البيولوجية قد تكون رابطة تشد الابناء الى والديهم .. ولكنها ليست الرابطة الاساسية الوحيدة في الحياة ... هناك روابط اقوى واسمى وابعد آماداً وعمقاً .. هناك يا عزيزي رابطة الانسان بارضه .. وبيئته ووطنه وامته .. رابطته بالفكر والعقل والروح والانسانية ، كل هذه الروابط مع الرابطة البيولوجية ، متجانسة مجتمعة .. تشكل العروة الوثقى بأوثق عوامل الانسانية وانبلها احتراماً .. بالمجتمع .. المجتمع المتطور الواعي للاكمل بانسجام ونظام .

احس يا احمد وانا اكتب اليك انني رأ عاطفياً في تفكيري ، واحاول تسريح تشابكه .. ووصفه بكلمات وسطور في هذه الصفحات ، خطاً الى جانب خط .. الا محاولة لاكمال النسيج .. ولكني لست واثقاً من مدى نجاحي بهذه المحاولة .. فجموح تيار الانفعالات الباطنية يحمل دفقه وشاقاً .. ، لذلك لا تتوقف امام ما قد تلاحظه من خليط متنافر .. ولا يدركك العجب ، فانك ماتزال يا احمد على عتبة الحياة ... وما يزال كيانك فارغاً من مخزون التجارب وتفاعل الاحاسيس والعواطف والمشاعر والخيبات لتدرك بصفاء وجلاء ما يعتمل بنفسي في هذه اللحظة .. ولكن اعلم ، هداني وجدك كما اردتك ابتداءاً وطموحاً ، وبعض عزائي ان تأصيل العمل الثابت لوالدك ساهم في جعلك وانت الآن .. وما يبقى لتصبح ما يجب ان تكون ..
فالبكلوريا .. لن تكون غير المفتاح الذي يمكنك من فتح باب المعرفة والدخول الى رحابها .. ولكنها ليست نهاية المطاف .. لأن جميع شهادات العالم لن تعني شيئاً اذا كانت في نظرك وسيلة للتعيش فقط والزهو الفارغ .. كثيرون جداً هم حملة مثل هذه الشهادات في بلادنا وعالمنا المنكوب ، ولكنهم تحت ضوء الحقيقة ومسبار الحق .. لا يتعدون وصف الآية الكريمة لامثالهم ... كما ... يحمل اسفارا .

العلم والمعرفة والشهادات ، اذا لم تكن وسيلة للمعرفة التي تجعل من حاملها انساناً ، وانساناً اجتماعياً يتحسس آلام امته ، ومشاكل شعبه ، والاخطار المحيطة بوطنه ومصيره ، فيعمل على ضوء هذا التحسس ، وما تعلمه ، وتخصص به ، لمسح تلك الآلام ، وحل تلك المشاكل ودفع تلك الاخطار ، معتمداً الاخلاق في تصرفاته والمناقب في اتجاهاته مدفوعاً بالصفاء القومي الرسالي .. فانه يبقى غير حامل من جوهر الانسان الا الطيف ، ومن شكله سوى المظهر ، وانه ليكون اشد خطراً على امته ووطنه من الامي الجاهل .. ومن العدو المتربص . وما احقر ان يكون هدف الحياة العيش ، والجبن وسيلة للسلامة .

عزيزي احمد .
تألمت كثيراً عندما اخبرتني ان والدك وعمومتك يقترحون .. او يخططون لارسالك الى ايران ، والذي آلمني اكثر ان يشترك عمومتك بمثل هذا الاقتراح الذي يدل على تخلف

- 3 -

تطمع في نهجهم الرسالة التي اقسموا الا يحيدوا عن الولاء ، فاذا كان الحافز عندهم هو الرفض
خلف المادة فدعني اخبرك بما يجهلون .. وهو يقين بأن ايران بلاد فقيرة تعاني ازمة بطالة
هائلة ..

واذا كان الدافع هو سد رمق ، شعور كامن في اعماقهم بان ايران هي وطنهم فليعلموا انهم
غرباء وانهم يخطئون كثيراً .. اما انت ، وقد تخطيتهم علماً وادراكاً فاريدك ان
تثق ان وطنك هنا .. واهلك هنا .. ومصيرك هنا .. ولهذه البلاد والامة يجب ان يكون
ولاؤك وانتماؤك .

لن استطيع الاضافة بشرح هذه النقطة في هذه السطور القليلة ، ولكنني ومتى التقينا
فانني سوف ، وعسى ان لا يكون هذا بعيداً ، سأضع امام ناظريك كل ما يجعلك تعي وتؤمن
انك بهذه الارض والوطن اصبحت تنتمي ، فمن خيرها تكونت ، وعليها ولدت ، وفي مجتمعها
وبيئتها تعلمت وتثقفت ، فاصبحت ما انت الآن وما قد تكونه في المستقبل . ومتى تلتقي
اخبرك عن استاذك ، محسن ابو ... ، اطلعه على رسالتي هذه ، وهو يشرح لك كل شيء
بهذا الموضوع .

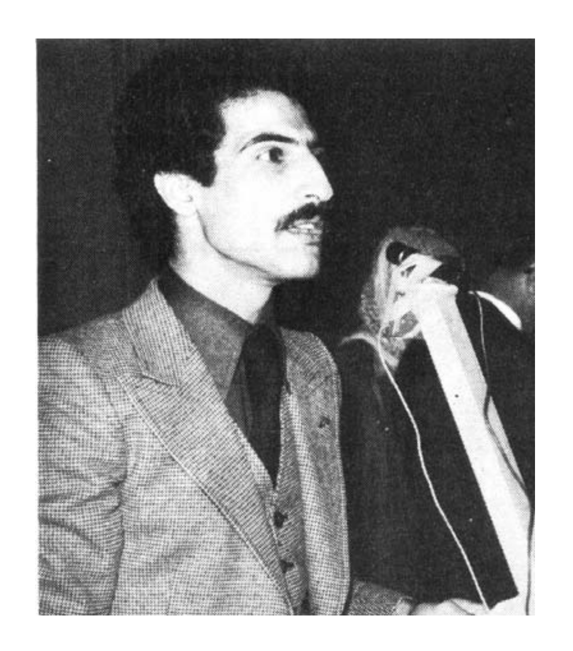
اما الآن ، فالمطلوب منك الاهتمام بمتابعة تحصيلك ، ولهذا اريدك ان تخبرني
عن المواد التي تجد نفسك ميالاً لها ، مثل الرياضيات .. الادب .. الفيزياء الخ ..
علني استطيع نصحك ومساعدتك وتوجيهك للسبل التي تؤدي بك لمتابعة التحصيل
والتخصص .

اخبرني عن حالتك عند اخوتك وشعورك بمسؤولية المستقبل تجاه نفسك واخوتك
وانصرافك عن ما يجري حولهم في سنك من لهو واضاعة وقت ، فاسعدني ذلك .
وبالمناسبة ، اريد منك الاهتمام بعبادتك ، وتشجيعهم ومساعدتهم في دروسهم ، فانني
احس انك ما تزال دون ما اريدها ان تكونه تحصيلاً ، كما اريد ان تعطيني ملاحظاتك
على المواد التي تجدها ناجحاً بها او ضعيفة .. وبصدق .

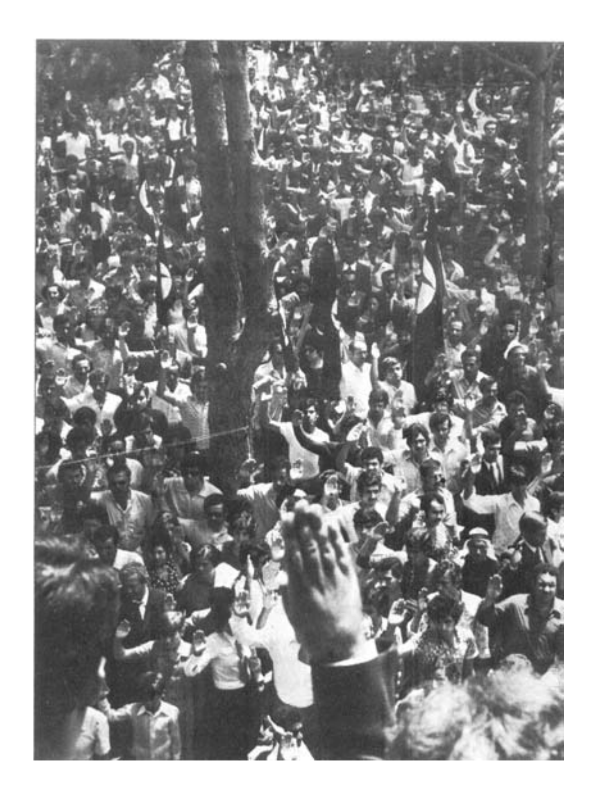
لقد اطلت عليك ، اخبرني كيف اصبحت علياء ؟ وهل تابعت دراستها ؟؟ واين وصلت .
دمتما ، اهتم بحالتك .. ولك عزائي عند اخوتك .. والسلام لمن يحبك

[signature]






Mobil





الى الشهداء حسين وأمين وقابي وانطون وعبود ، رفقاء التدريب ... رفقاء الدرب ... ورفقاء المصير مع نرجسي واشتياقي .

أحمد

إلى الأول من آذار

دون مناسبة

يأتـــون اليك
على شفاههم بسمات تجمدت
يحملون ورد اذار ربيعـــاً
ويحتفلون بـــك ....
يأتون من دفء الاسرّة
من القبور المسوّدة خجلاً .
يبحثون في التراب عنـــك
عن اقنعة الفرح الرمية منذ سنة
تلك التي تخفي لوجههم ...
ثم يمتطون اذار ربيعاً
ويأتون اليـــك ...

★

في بيوتهم انـــت خريف
ضيفٌ ثقيلُ الظل في وقتٍ غير مناسب
يحتل زوايا الغرف المنسيّة
او حائطٍ قديمٍ مهملٍ ...
لا تعرفك المقاعد المريحة
ولا لهـــب المواقد الشتائيّة .
انت ذكـــرى
انـــت ــ عندهـــم ــ
قصة بطولة حدثت في زمن خرافيّ
يضمها كتاب ويأكلها الغبار ...

★

يأتون اليـــك
يغسلون الصدا عن شفاههم
ويقدمون لك ورد الخريف .
اذار ما عاد ربيعاً
ودم تموز بقـــعٌ مهملة على شبطٍ رملي مهجور .
ويحتفلون بـــك ...

★

وحدهم لا يأتون
متزرعون هم على امتداد افق عينيك
في الساحل والجبل والنهر
وفي سهول الزيتون ...

وحدهم يفرحون بـــك
لانهم ما عرفوا تقديم الزهور في المناسبات
وحدهـــم
يقفونَ امامك .. يبتسمـــون لكَ
ويقدمون دمهم هدية فرح لمجيئكَ ...
وحدهم عرفوك
وعرفتهم وحدك .
كانت جراحاتهم تخاطب معك
قلتَ لهم ــ عندما شاهدتَ نقش الدم علـــى جبينهـــم ــ
« انتم فرحي » وغصّ بك البكاء .
لم يبكـــوا .. فرحوا
تبســمت حتى الجراحات في صدورهم
واحتفلوا بـــك ...
وحدهم يفرحون بـــك
لا يعرفون الحزن والبكاء
لكن الحزن غمر ارضنا الطيبة
وبكى الساحل والجبل والنهر وسهول الزيتـــون
لاجلهـــم هـــم ،
هم الذين يقفون امامـــك ،
يبتسمون لك ،
ويقدمون جراحهم هدية فرح لمجيئك ...
ويحتفلون بـــك ...

احمـــد







المحتويات